الفصل الثاني

الإمبراطورية الآشورية

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثاني

الإمبراطورية الآشورية

أشور أول دولة قامت

أشور (Assyria, Ashur)، أول دولة قامت في مدينة أشور في شمال بلاد مابين النهرين، وتوسعت في الألف الثانية ق.م. وامتدت شمالا لمدن نينوي، نمرود وخورسباد. ولقد حكم الملك شمشي مدينة أشور عام ١٨١٣ ق.م. واستولي حمورابي ملك بابل على أشور عام ١٧٦٠ ق.م. إلا أن الملك الآشوري شلمنصر استولي على بابل وهزم الميتانيين عام ١٢٧٣ ق.م. ثم استولت أشور ثانية على بابل عام ١٢٤٠ ق.م. وفي عام ١٠٠٠ ق.م. استولي الآراميون على آشور، لكن الآشوريين استولوا على فينيقيا عام ٧٧٤ ق.م. وصور عام ٧٣٤ ق.م. والسامرة عام ٧٢١ ق.م. وأسر سارجون الثاني اليهود في أورشليم عام ٧٠١ ق.م. وفي عام ٦٨٦ ق.م. دمر الآشوريون مدينة بابل وثار البابليون على حكم الآشوريين وهزموهم بمساعدة ميديا عام ٦١٢ ق.م. شن الآشوريون حملاتهم على باقي مناطق سوريا وتركيا وإيران.

الإمبراطورية الآشورية

وكانت مملكة أشور دولة عسكرية تقوم على العبيد، وكان لها إنجازات معمارية وصنع التماثيل ولاسيما تماثيل الثيران المجنحة التي كانت تقام أمام القصر الملكي، وزينت الجدران بنقوش المعارك ورحلات الصيد. وما بين سنتي ٨٨٣ ق.م. و٦١٢ق.م. أقامت إمبراطورية من النيل للقوقاز، ومن ملوكها العظام: آشوربانيبال، تغلات فلاصر الثالث، سرجون الثاني، سنحاريب، آشورناصربال، واسرحادون (والد أشور بانيبال) الذي كان مهووسا بحب إذلال الملوك حيث كان يجبر الملوك التابعين له على المجيء إلى عاصمته

والعمل في ظروف قاسية لبناء قصوره في نينوى، وآخر ملوك أشور المدعو أشور أوباليط الذي اقام مقر قيادة مؤقت في حران (الجزيرة الفراتية) بعد سقوط نينوى بيد البابليين بقيادة نابو بولاصر الكلداني محاولا تأخير المذبحة الشاملة للشعب الآشوري. وكانت كتابة الآشوريين الكتابة المسمارية التي كانت تكتب علي ألواح الطين، وأشهر مخطوطاتها ملحمة جلجماش التي ورد بها الطوفان لأول مرة. وكانت علومهم مرتبطة بالزراعة ونظام العد الحسابي السومري الذي عرف بنظام الستينات وكان يعرفون أن الدائرة ٦٠ درجة، كما عرفوا الكسور والمربع والمكعب والجذر التربيعي، وتقدموا في الفلك وحسبوا محيط خمسة كواكب، وكان لهم تقويمهم القمري وقسموا السنة لشهور والشهور لأيام، وكان اليوم عندهم ١٢ ساعة والساعة ٣٠ دقيقة. وكانت مكتبة الملك أشور بانيبال من أشهر المكتبات في العالم القديم حيث جمع كل الألواح بها من شتي مكتبات بلاده.

الآشوريون من القبائل السامية، التي قطنت المنطقة الشمالية من حوض نهر دجلة، بعد التقاء هجرتين من مناطق الجوار، الأولى التي تمثلت في نزوح العناصر السامية من منطقة بابل خلال العهد الأكدي. أما الثانية فإنها تمثلت في هجرة الآراميين من سوريا وهم من الأقوام السامية إلى المنطقة. وبقدر التأكيد على "ساميّة" أصول الآشوريين، فإن حالة الاختلاط مع الأقوام الأخرى كان لابد لها أن تظهر في ارتباطها ببعض الأقوام غير السامية، من حيثيين وأكراد.

كان الارتباط السياسي بالنسبة للآشوريين، قد وضح في الخضوع لسيطرة أسرة أور الثالثة، والتي ما إن بدأ سلطانها بالزوال، حتى تطلع الملك "بوزور أشور الأول" لإعلان الاستقلال والعمل على تأسيس الحكم الآشوري خلال العام ٢٠٠٠ ق.م، ليبدأ التحرك نحو مناطق الحوض الجنوبي من وادي الرافدين. والواقع أن الآموريين بدأوا في إعلان ولائهم للآشوريين من أجل التمكن من الاستقرار من منطقة مركز الحكم الآشوري، وبالتالي التمكن من النفاذ إلى قمة هرم السلطة والسيطرة على مؤسسة الحكم، وكان لهذه الحركة أثرها في توسع النفوذ الآشوري إلى سواحل البحر المتوسط في سوريا، إلا أن ظهور الملك حمورابي كان قد أوقف مرحلة التوسع الآشوري، بعد أن أخضعها تحت نفوذه.

سقوط الدولة البابلية

بعد سقوط الدولة البابلية الأولى على يد الحيثيين، تمكن الآشوريين من استثمار الفرصة، لإعلان استقلالهم على يد الملك "شمش آدار الثاني" في العام ١٣٨٠ ق.م، الذي تميز عهده بالعمل الجاد والدءوب على إعادة بناء وتوسيع الدولة الآشورية، إلا أن خلفاؤه لم يكونوا بمستوى طموحاته، هذا بالإضافة إلى حالة الخطر والتهديد الذي ظهر على يد الميتانيين من القبائل الحورية والممالك السورية خلال منتصف الألف الثاني ق.م، حيث قيض لهم السيطرة على الدولة الآشورية حوالي مائة عام.

ساهمت العلاقات الدولية المحتدمة بين القوى الناهضة، في تغيير ملامح الصورة السياسية العامة، إذ لم تستقر الأوضاع، بقدر ما كانت الطموحات هي الدافع الرئيس في صدام القوى، وتوجيه التحالفات، فالميتانيون كانوا قد دخلوا في صراع سياسي وعسكري ضد الحيثيين، هذا بالإضافة إلى الانقسام الذي ظهر داخل البيت الميتاني الحاكم، ليتبلور الاتجاه لدى ملك أشور المدعو "أشور أوبلط الأول" في إعلان تحالفه مع أحد أطراف النزاع الداخلي.

إن النتائج التي تمكن أن يحصل عليها الملك الآشوري، لاسيما في التخلص من النفوذ الميتاني والتمكن من اقتسام بلادهم، أن جعله يتوجه نحو توطيد أواصر علاقاته السياسية، مع القوى السياسية الفاعلة، حيث أقدم على الزواج من ابنة الملك الكاشي الذي كان يفرض نفوذه على بابل. وقد حظيت مملكة أشور بملوك خلفوا "أشور أوبلط" وكانوا على مستوى المسؤولية وانتهجوا ذات الأسلوب الذي سار عليه، ليثمر عن ذلك خلال القرن التاسع ق.م، بلوغ مستوى الإمبراطورية الآشورية بكل قوتها ونفوذها السياسي. من الملوك الآشوريين البارزين "شلمنصر الأول" الذي دام حكمه ١٢٦٦ - ١٢٤٣ ق.م، وتطلع إلى توجيه العديد من الحملات العسكرية وعمل على استبدال العاصمة "آشور" بمدينة "نمرود". أما العمل الأبرز فكان على يد الملك "توكلتي ننورتا" ١٢٤٣ - ١٢٢١ ق.م، الذي تمكن من السيطرة على بلاد بابل، وتوسيع سلطانه في الجهات الشرقية والغربية. لكن بعد وفاة هذا الملك دخلت أشور في مرحلة الضعف السياسي، نتيجة

لوصول ملوك ضعاف الشخصية، غير قادرين على إدارة مقاليد الحكم، واستمرت هذه الفترة حوالي مائة عام، حتى بلوغ الملك "تجلات بلاسر الأول" ١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م إلى سدة الحكم، لتكون هذه الفترة مليئة بالإنجازات العسكرية الكبيرة، حيث تمكن من تحقيق الانتصارات المتوالية في الأصقاع البعيدة، في البحر الأسود وسواحل آسيا الصغرى والمدن الفينيقية على الساحل السوري، هذا بالإضافة إلى استعادة السيطرة على مملكة بابل، وإعادة نقله العاصمة إلى المدينة القديمة "آشور" والعمل على إعادة بنائها من جديد، وذلك بعد أن توفرت الأموال اللازمة التي كانت تأتي إلى العاصمة من مختلف الأقاليم التي تمت السيطرة عليها.

على الرغم من الجهود التي بذلها "تجلات بلاسر" في تدعيم الملك الآشوري وبناء الدولة، إلا أن الخطر الآرامي مثل تهديداً حقيقيًا للآشوريين، لاسيما خلال القرن الحادي عشر ق.م. لكن القرن التاسع عشر ق.م، شهد نهوضًا آشوريًا جديداً على يد الملك "آداد نيراري الثاني" ٩١٣ - ٨٩٠ ق.م، الذي عمل على مواجهة الخطر الآرامي من خلال إخضاعهم للسلطان الآشوري، وتطلع نحو محاربة بابل لتسفر عن توقيع معاهدة بين الطرفين، اعترفت فيها مملكة بابل بترسيم الحدود مع الجانب الآشوري.

أما المرحلة اللاحقة فقد تميزت في تحركات القبائل الجبلية في المناطق الشمالية من سوريا، وتطلعات الآراميين في المنطقة الغربية حتى جاء الملك "أشور ناصر بال الثاني" ٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م، الذي وضع لمساته الخاصة في مجال التنظيمات العسكرية، حيث توسع في مجال استخدام العربات العسكرية والخيالة، مع العناية بالجانب الإداري، حيث كان للتوسع الكبير في الفتوحات، أثره في أهمية الاعتماد على ولادة ينوبون عن الملك في إدارة الأقاليم، لاسيما البعيدة منها. وكان الملك "شلمنصر الثالث ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م، قد عمل على توسيع رقعة الحكم الآشوري، ليفرض الجزية على الممالك الواقعة في رأس الخليج العربي. هذا بالإضافة إلى الحملات التي وجهها نحو جنوب سوريا. ولعل الحادث الأكثر جسامة في تاريخ الملك شلمنصر، كان قد تمثل في الإنتصار الذي حققه في معركة "قرقارة" عام ٨٥٣ ق.م، عندما واجه التحالف الذي تم بين الآراميين، خصوصًا بعد تعرض مدينة "دمشق" لهجوم شلمنصر، وعلى الرغم من تمكن الملك من مواجهة جيوش اثنتا عشر مملكة

آرامية، إلا أنه لم يتمكن من دخول "دمشق". ومما فاقم في الأوضاع، ظهور حالة من التمرد الداخلي في الأسرة الحاكمة، حيث أعلن أحد أبناء الملك راية العصيان، مما كان له الأثر البالغ في فقدان مملكة أشور لبعض الأقاليم الآشورية-البابلية، من خلال إقدام الملك "شمش آداد الخامس ٨٢٤ - ٨١٠ ق.م، للزواج من الأميرة البابلية "سميراميس" التي صارت الوصية على عرش ولدها الصغير بعد وفاة والده الملك. والواقع أن مملكة أشور كانت قد وقعت تحت حكم بعض الملوك الضعاف الذين لم يتمكنوا من تقديم، أي إنجاز سياسي، حتى ظهور الملك "تجلات بلاسر الثالث" ٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م.

القوة والعقوبات بالأعداء

ما يميز عصر هذا الملك، الاتجاه الشديد والقاسي، نحو فرض العقوبات الصارمة بأعدائه، فقد تمكن من دخول مدينة دمشق عام ٧٣٢ ق.م، وعمد إلى نقل سكانها إلى خارج المدينة، من أجل القضاء على نفوذ الدولة الآرامية بدمشق، وكان هذا الأسلوب قد ابتدعه ليسير خلفاؤه من بعده عليه، من جانب آخر كان تركز تجلات بلاسر على محاربة الميديين في بلاد فارس، فيما تمكن من احتلال مدينة بابل عام ٧٢٩ ق.م، وإعلان نفسه ملكًا عليها. وكان من نتائج التوجه نحو الفتوح والحركات العسكرية المستمرة، أن توسعت رقعة الإمبراطورية الآشورية، لتشمل مناطق بعيدة أتاحت لخلفه الملك شلمنصر الخامس ٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م، أن يحظى بمملكة واسعة الأرجاء، محكمة البنيان، تدخل خزانتها الأموال الواسعة الكبيرة، إلا أنه تعرض للانتفاضة الداخلية، لينتقل الحكم إلى أخيه الملك سرجون الثاني ٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م، الذي واجه الأطماع المصرية في المنطقة بعد أن فقدت نفوذها في فلسطين، ودولة بابل التي حاولت التخلص من السيطرة الآشورية المباشرة. فيما تميزت خطوات "سرجون الثاني" بالتؤدة والحكمة، حتى أنه صفح عن ألد أعدائه، وعينهم في مناصب مهمة، مثل حكام إمارات، كل هذا من أجل حفظ الموازنات، ليتمكن بالتالي من الحصول على لقب ملك بابل.

من جانب آخر قيض لهذا الملك أن يتم له القضاء على مملكة السامرة عام ٧٢٢ ق.م، ويعمد إلى طرد أهلها واستبدالهم بسكان جدد، وبعدد أكبر مما كان، وعين عليها حاكمًا

آشوريًا مع فرض الجزية. وفي الوقت ذاته برزت التدخلات المصرية في المنطقة الغربية، حيث عمدت إلى تقديم الدعم من أجل ظهور التمرد والثورات ضد النفوذ الآشوري. لكن سرجون الثاني لم تخمد همته، بل حرص بالإضافة إلى نشاطاته العكسرية، إلى تأمين الطرق التجارية في سوريا عند الشمال الغربي وفي جزيرة العرب واليمن وحضرموت. أما في الأقاليم الشمالية من سورية فإن جهوده أثمرت عن مد سلطانه إلى طوروس وآرارات وعمد إلى احتلال قبرص، بل وحرص على فرض نفوذه في مناط التخوم مع الجنوب مع بلاد مصر ولاسيما وفلسطين. أما في المجال العمراني، فقد حرص على تطوير مدينة "آشور" العاصمة القديمة، لينتقل بعدها إلى مدينة "نمرود"، فانتقاله مرة أخرى إلى مدينة "نينوى"، لكنه حرص في العام ٧١٣ ق.م، على إنشاء مدينة جديدة "خرسباد" بعد أن أحاطها بسور حصين، تم بناء مائة وخمسون برجًا عليه، مع ثمان بوابات مرسوم عليها الثيران المجنحة لحراسة المدينة، وقد تم افتتاح المدينة عام ٧٠٦ ق.م، بعد أن خططت بشكل دقيق وحاذق يثير الإعجاب، ليكون دلالة عميقة على التطور الفني والعمراني الذي بلغه الآشوريون، لاسيما وأن حالة الاتصال مع الثقافات الأخرى كان له الأثر البارز في هذا المجال. لكن المدينة سرعان ما أهملت، خصوصًا وأن خلفه الملك "سنحاريب" ٧٠٥ - ٦٨١ ق.م، وقد نقل العاصمة إلى "نينوى".

ما يميز عهد "سنحاريب" حالة التقارب والتحالف مع الفينيقيين واليونان، الذين قدموا له الدعم في إنشاء السفن التي استخدمها في محاربة الممالك البابلية الموجودة في أقصى الجنوب عند رأس الخليج العربي، لاسيما بابل وبعض الممالك السورية كانت قد وقفت بالضد من بلاد أشور) في شرق سوريا والهلال الخصيب. أما الملك "أسرحدون ٦٨٠ - ٦٦٩" ق.م الذي قيض له أن يقمع الفتنة التي ظهرت في أعقاب والده سنحاريب، فقد توجه بكل ثقله نحو محاربة مصر في شرق الدلتا عام ٦٧٥ ق.م،م.

بوفاة الملك "أسرحدون" المفاجئة، تعرضت الأسرة الحاكمة إلى مشكلة وراثة الحكم، حيث تمكن الابن الثالث "أشور بانيبال" ٦٦٩ - ٦٢٦ ق.م، من السيطرة على الحكم في بلاد آشور، أما الابن الأكبر "شمش شوم أوكين" فقد عين وريثًا شرعيًا للمملكة في بابل،

وكان التعاون بين الأخوين قد استمر لمدة عشرين عامًا، لكن الأطراف المناوئة للنفوذ الآشوري، حاولت التقرب إلى الملك "شمش شوم"، محرضينه على أهمية التمرد على أخيه الملك "أشور بانيبال". وقد عملت عدة أطراف في هذا المجال منها الكلدانيون والعيلاميون والممالك السورية وأمراء القبائل العربية، ليسفر عن ذلك حصار لمدينة بابل عام ٦٥٢ ق.م، دام حوالي السنتين انتهى بوفاة الملك "شمش شوم" وتدمير مدينة بابل، ليتوجه "أشور بانيبال" بعدها إلى تأديب الحلفاء حيث هاجم العيلاميين، وعمد إلى تدمير مدينة "سوسة".

ولاية العهد

وكعادة الآشوريين، فإن مشكلة ولاية العهد كانت الأكثر حضوراً في الواقع السياسي، حتى أن وفاة أي ملك منهم، تمثل مرحلة قلاقل وصدامات بين الأمراء، إذ عادت الحروب بين الإخوان حول ولاية العهد والفوز بالمنصب الملكي، وقد استثمرها ملوك الأقاليم للانفصال عن الحكم الآشوري، حيث انفصلت فلسطين وسوريا وأرمينيا، وظهرت الأسرة الكلدانية في بابل، وبدأ الميديون بتهديد العاصمة الآشورية. وقد بلغ الأمر قمته عندما تم التحالف بين الميديين والبابليين لاقتسام مملكة أشور وتدمير العاصمة "نينوى" ونهب كنوزها.

كان للطبيعة الحربية التي نشأ عليها الآشوريون، قد انعكست في مجال الاعتقاد والعبادات الدينية، حيث يغلب على آلهتهم الصفة الحربية، وهذا ما يتجسد في كبير الآلهة لديهم وهو "آشور" إله الحرب، حيث يجسد في رسم محارب قاسي الملامح يحمل العدّة الحربية الكاملة والجاهزة. وفي المرتبة الثانية تأتي منزلة الآلهة "عشتار" زوجة "آشور"، حيث يتم رسمها وفق السمة الحربية، حيث تحمل السيف والقوس وتضع على كتفها السهام المعدة للقتال. والواقع أن عبادة الآشوريين لم تتوقف على هذين الإلهين، بل إن الاحتكاك مع الأقوام والثقافات المختلفة ومنهم الاراميين، جعلتهم يتوجهون نحو عبادة العديد من الآلهة مثل؛ "شمش، سن، آدد، نابو، بعل، مردوخ، إينورتا".

ظهور إمبراطورية آشور

كانت بلاد أشور قد برزت بعض الوقت في عهد شمشي ـ أدد، ثم تدهورت كثيراً في عهد الميتانيين. وبتدهور ـ الميتانيين، عادت أشور ثانية لتصبح قوة فعالة في السياسية الدولية، ويمكن اعتبار حكم أشور أوبالط الأول (١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ق.م) بأنه عهد طويل من التطور ارتفع فيه شأن أشور أخيراً إلى موقع السيادة الدولية في الشرق الأدنى، وكنتيجة لزواج ابنته من كارا-انداش، ابن بورنا ـ بوياش الثاني ١٣٤٧-١٣٧٥ق.م ملك بابل، تمكن أشور ـ اوبالط من أقامة تحالف بين بلاد أشور وبابل. وقد استمر هذا التحالف إلى ما بعد وفاة بورنا ـ بورياش وتمكنت بابل من خلاله أن تحصل على دعم أشور لتقضي على السوتو (وهم من القبائل الراحل التي أقلقت منطقة وسط الفرات كلا الدولتين بغاراتها على الحدود).

وعلى الرغم من أن السلالة البابلية كانت آنذاك على علاقة بالسلالة الاشورية، إلا أنه لم يكن هناك أجماع بابلي على دعم السياسة الآشورية، وما لبثت أن حدثت ثورة في بلاد بابل قتل خلالها الوارث الشرعي للعرش ونصب بدله غاصب يدعى نازي ـ بوكاش. ومع ذلك فقد كان أشور ـ أوبالط في موقع مكنه من التدخل بصورة جدية وفعالة وتصفية الحزب المناوئ للآشوريين في البلاط البابلي وتنصيب كوريكالزو الثاني (١٣٤٥- ١٣٢٤ ق.م) ملكًا على بلاد بابل.

غير أن العلاقات الطيبة بين بلاد بابل وأشور لم تستمر بعد حياة أشور ـ اوبالط، وعلى أن اعتلى العرش الأشوري انليل ـ نراري (١٣٢٠-١٣٢٩ ق.م) حتى اندلعت الحرب، ولعل ذلك بسبب ادعاء كوريكالزو الثاني، وهو حفيد أشور ـ أوبالط، بالعرش الاشوري لنفسه. ولم تكن الحرب حاسمة غير أنها اضعفت بلاد بابل إلى درجة لم تتمكن معها من أن المجاورة، في حين كانت أشور في موقع أقوى حيث تمكن اريك ـ دين ـ ايلو (١٣٠٨-١٣١٩ ق.م) من الانتصار على الأقوام القاطنة شرقي وشمالي بلاد أشور. وتعود على هذه الفترة أول أشارة إلى موجة جديدة من الغزاة القادمين من الغرب الذين عرفوا بالاخلامو، وهم من الاراميين المرتبطين بالسوتو الذين سبق ذكرهم. وقد تمكن اريك ـ دين

ـ ايلوا من دحر الاخلامو واخذ غنائم كثيرة منهم. وتمكن ابنه ادد ـ نراري الأول (١٣٠٧-١٢٧٥ ق.م) من توسيع نفوذ بلاد أور وحقق انتصارات على الملك الكاشي نازي ـ ماروتاش نازي ـ ماروتاش وعلى الأقاليم الواقعة شملاً. وقامت هانيكالبات التي كانت تابعة لاشور تحت تأثير الحثيين، بتمرد كان من نتائجه تجهيز حمله تأديبية عليها. وقد وجد شيلمنصر الأول (١٣٠٧-١٢٧٥ ق.م) من توسيع نفوذ بلاد أور وحقق انتصارات على الملك الكاشي نازي ماروناش وعلى الأقاليم الواقعة شمالاً. وقامت هانيكا لبان التي كانت تابعة لأشور تحت تأثير الحيثيين. يتمرد كان من نتائجه تجهيز حملة تأديبية عليها. وقد وجد شيلمنصر الأول (١٢٤٥- ١٢٧٤ق) من الضروري لحل مشكلة الحدود الغربية وذلك بضم هنايكالبات إلى بلاد أشور كمقاطعة وينفي الآلاف من سكانها. كما أنه ضمن الحدود الشمالية، ولو لفترة محدودة، بدحر قوة اروتاري (اورارتو) التي كانت قد ظهرت حديثا وقد ذكرت لأول مرة في هذه الفترة. وأصبحت هذه القوة، التي ربما كانت في هذا الموقف عبارة عن اتحاد بين شيوخ القبائل والإمارات أكثر من كونها دولة واحدة، المنافس الرئيس لبلاد أشور في القرن الثامن قبل الميلاد.

وفي عهد شيلمنصر الأول تم تأسيس مدينة كلخو (كالح في العهد القديم) عاصمة بلاد أشور فيما بعد.

وأعقب هذه الفترة تدهور سريع. فقد بدأ توكلتي ننورتا الأول ١٢٠٨ - ١٢٤٤ق.م) عهده على نفس منوال شيلمنصر وذلك بفتوحات بلاد وذلك بفتوحات مصحوبة بسياسة نفي السكان في الغرب والشمال على نطاق واسع بما في ذلك بلاد نائيري Nairi جنوب غربي بحيرة وأن. ولعل من الأحداث المثيرة هو إخضاعه لكاشتلياش الرابع (١٢٤٢- ١٢٣٥ ق.م) الذي كان من نتيجته أن خضعت بابل لأول مرة للحكم الأشوري المباشر وهناك مقطوعة أدبية دعائية تعرف بملحمة توكلتي ننورتا تسرد لنا أحداث هذا العمل الجريء من وجهة النظر الأشورية.

وكانت سياسة توكلتي ننورتا في الجنوب هي أن يثبت عسكريًا الأداريين الآشوريين في بلاد بابل ومن ثم يعالج الحدود المجاورة من ماري وخانا إلى الحدود العيلامية. وحمل

توكلتي ننورتا تمثال الإله مردوخ من بابل إلى اشور، وهناك من يرى أن فتح توكلتي ننورتا تمثال الإله مردوخ من بابل إلى أشور، وهناك من يرى أن فتح توكلتي ننورتا لبابل كان في النهاية انتصار للحضارة البالية على الحضارة الأوشورية من خلال تمزيق وحدة الهدف الأشورية وخلق خلاف في أشور بين أولئك الذين يريدون أن يعتنقوا الديانة البابلية وأولئك الذي أرادوا أن يسلكوا طريقًا أيسر ويتبعوا ديانة أبائهم وأجدادهم. لذا نجد أن ترتيلة اكيتو التي عثر عليها في مدينة أشور لا تخص الإله القومي أشور بل تخص مردوخ إله بابل. ومع ذلك، فقد بينت الدراسات الحديثة أن تزايد استخدام أسم الإله مردوخ كعنصر في الأسماء الأشورية في هذه الفترة كان جزءا من الاتجاه العام لتحرر من الإقليمية الذي كان من نتائجه أن حظي عدد من الإلهة الأخرى، إضافة إلى الإله مردوخ، بقبول شعبي متزايد.

وفي أواخر حكم توكلتي تنورتا، طرأ تغير سريع وغير واضح في سياسة هذا الملك الذي توقفت نشاطاته العسكرية نهائيًا، ومن الممكن ترجيح أسباب مختلفة لهذا التغيير ولكن من المحتمل أن التوسع العسكري الذي دام ما يقرب من مائة سنة قد انتج ضغطًا اقتصاديا قاسيًا، ومن الممكن أيضًا أن التحركات العرقية في هذه الفترة ومن بينها دخول الفلسطينيين إلى فلسطين كانت السبب المباشر في انهيار الدولة الحثية، قد ساهمت في تعطيل توكلتي ننورتا وذلك بقطع المصادر الأشورية للمعادن. ومهما كانت الأسباب الفعالة لذلك، فقد كان من نتائجه أن زاد الضغط الداخلي وانتهي بحدوث ثورة مات خلالها توكلتي ننورتا على أيدي أبنه أشور ـ نادن ـ إيلي ـ 1207) ١٢٠٤ق.م) ثم دخلت بلاد أشور في فترة ضعف إلى درجة أن خليفتي أشور ـ نادن ـ إيلي كانا في الواقع عبارة عن تابعين لبابل. غير أن تبعية أشور لبابل لم تستمر طويلاً فقد قامت ثورة مضادة للبابليين انتهت بتنصيب ابن اخر لتوكلتي ـ ننورتا على العرض هو انليل ـ كودور ـ أوصر (١١٩٧- ١١٩٣ ق.م) الذي قاد هجوما على بلاد بابل. وكنتيجة لخطأ في الترجمة، فقد كان الاعتقاد سابقًا أن كلاً من الملك الأشوري والحاكم الكاشي قد سقطا في المعركة. وقد تبين أن ذلك هو خطأ في تفسير النص المعني. غير أن ما حدث فعلاً ليس واضحًا تمامًا. وتنص الفقرة المهمة من النص، كما ترجمها: H. Tadmor (JNES, XVII (1958),

P.131) على ما يأتي:- انليل _ كودور _ أوصر، ملك أشور وادد _ شوم _ اوصر، ملك بابل دخلا المعركة. وبينما كان انليل _ كودور _ اوصر (و) ادد _ شوم- اوصر.. في المعركة، عاد ننورتا- أبال ايكور أبن ايلي- ايخدا، من نسل اربيا _ ادد إلى بلاده (أشور) وجميع جيشه الكبير وجاء إلى اشور بغية فتحها وشب حريق في معسكر ادد- شوم _ اوصر، فعاد أدراجه ورجع إلى بلاده.

وقد ذكر جزء من هذه الأحداث في جداول الملوك الأشورية التي تذكر:-

ننورتا- ابل- ايكور... نسل اربيا- أدد، ذهب إلى كاردونياش (أي بابل)، ثم جاء من كاردونياش واستولى على عرش (أشور) وحكم ثلاثة سنوات)أو ثلاثة عشر استنادا إلى قراءة أخرى للنص).

ويفسر الدكتور تدمر Tadmor هذين النصين كما يلي: كان ننورتا- ابل- أيكور من النبلاء الأشوريين، ومن نسل اربيا- ادد الأول البعيدين، يعيش في بلاد يلقي دعم الملك الكاش وقد تقدم مع الجيش البابلي وخلال الحملة تمكن من أن يجند جيشًا خاصًا به ويستولى على العرش الأشوري. وكان لحدوث حريق في المعسكر البابلي أن توقف الباليون عن الهجوم على اشور وعادوا أدراجهم.

حكم ننورتا _ ابل _ ايكور _ بلاد أشور من ١١٩٢ إلى ١١٨٠ ق.م. وكان بلاد أشور نفسها في هذه الفترة قد اقتصرت جغرافيا إلى أدنى حدودها رغم أنها كانت في مأمن من التبعية الاسمية لبلاد بابل، حيث لم تكن تضم سوى موطن الأشوريين الأصلي، كما أن أشور _ دان الأول ابن وخليفة ننورتا _ ابل- ايكور لم يلقب نفسه بلقب الملك بل اكتفى بلقب أمير اشاكو وهو الصيغة الأكدية للمصطلح السومري القديم Ensi انسي. أما الأراضي الواقعة شرقي بلاد أشور فقد كانت دائمًا، حتى الوقت الحاضر، معرضة للسلب والنهب على أيدي القبائل الجبلية وذلك في حالة غياب إدارة مركزية قوية. وكانت بعض أجزاء الإقليم الجبلي موضوع البحث والواقع شرق وجنوب الزاب الأسفل تحت سيطرة بابل سابقًا وبذلك كانت بابل في موقع يمكنها من حماية الطرق التجارية غير أن هجوم توكلني _ ننورتا قد أضعف ممكلة الجنوب وسبب في خلق أزمات داخلية أدت في النهاية

إلى تغيير السلالة الكاشية وإحلال سلالة بابلية محلية في ايسن بدلاً عنها وذلك بعد فترة من الاضطرابات ولم تكن بابل في هذا الوضع قادرة على حماية الأراضي الواقعة في إقليم الزاب الأسفل. ويتعرض الطرق التجارية التي اعتمدت عليها التجارة الآشورية للتغيير بسبب القبائل الجبلية المتجولة من قطاع الطرق، فلابد أن وضعت التجارة الآشورية في موضع متأزم. ولعل ذلك كان السبب في قيام أشور- دان الأول وكذلك والده من قبله بعمليات عسكرية في الأراضي الواقعة إلى ما وراء الزاب الأسفل.

أما السلالة الجديدة في بابل، والمعروفة عادة بسلالة ايسن الثانية، فقد قوت من مركزها خلال حكم الملك الأسوري اشور ـ دان الأول الطويل. ـ 1179) ١١٣٤ ق.م) وعند وفاة الأخير يبدو أنها كانت في وضع سمح لها بالتدخل في ولاية العرش الأشوري. وبذا فقد ضمنت حكمًا قصيرًا للنورتا ـ توكلني- أشور الواقع تحت حمايتها وهو الذي أعاد إلى بابل تمثال الإله مردوخ الذي كان في حوزة الأشوريين منذ عهد توكلتي ـ ننورتا.

إن ملوك سلالة ايسن الثانية الأولين الذين سبقوا نبوخذ نصر الأول وهو أهمهم جميعًا، وقد حكم من ١١٢٤ إلى ١١٠٣ ق.م. ففي عهده كانت الإدارة المركزية في بابل مسيطرة تمامًا على الحوادث في البلاد وكان في موقع مكنه من الاهتمام بالشؤون الخارجية. وكما هي الحال دومًا في حالة عدم وجود حكومة مركزة قوية، فقد كانت بلاد بابل معرضة لامد طويل لهجمات عيلام، وكان تمثال الإله مردوخ قد سلب من بابل في إحدى تلك الهجمات. وتمكن نبوخذ نصر من دحر قوات عيلام واستعادة تمثال الإله مردوخ واخذ تمثال أحد الإلهة العيلامية. وفي الشمال الشرقي تمكن من اللولوبي في منطقة قرة وانج الذين كانوا على بلاد بابل منذ عهد سرجون الأكدي على الأقل، كما أنه هاجم بعض الكاشيين في المنطقة الجبلية ولعلهم كانوا من الكاشيين الأولين الذين لم ينحدروا للاستقرار في بلاد بابل. كما استمرت سيطرة بلاد بابل على أشور خلال جزء من حكمه إلى أن تمكن الحاكم القوي أشور- ريش ـ اشي (١١٣٣- ١١١٦ ق.م) من ضمان استقلال المملكة الشمالية.

وفي هذه الفترة كانت كل من بلاد أشور وبابل تشعر بضغط الأراميين المتغلغلين من الغرب. غير أن التأثير المباشر كان أكثر على بلاد أشور منه على بلاد بابل طالما أن تجاوز

الأراميين على منطقة الخابور كان يهدد أمن الطرق التجارية الأشورية المؤدية إلى الساحل السوري والأناضول. وقد قام أشور ـ ريش ـ اشي القوى بحملة ناجحة على الاحلامو، وهم فرع من الاراميين في هذه المنطقة، ووصف نفسه في احد النصوص بأنه الذي سحق قوات الاحلامو المنتشر، كما كانت الطرق التجارية على طول الحدود الشرقية مهددة من القبائل الجبلية أيضًا، فقام أشور ـ ريش- أشي بحملات ضد قبائل القوتي Quti واللولوبي، ولعل المصالح الأشورية قد اصطدمت بالمصالح البابلية في هذه المنطقة حول تثبيت حدود النفوذ. وقد نتج عن ذلك أن قام الملك البابلي بمحاولة لغزو بلاد أشور من الجنوب، غير أن المحاولة انتهت بانتصار أشوري ساحق.

أعقب أشور ـ ريش- اشي أبنه تجلاتبليز الأول (١١١٥ ـ ١٠٧٧ ق.م) الذي لم يكن أقل من أبيه مقدرة. وقد عرفت منجزاته بشيء من التفصيل من منشور طيني كبير. وقد ثبت هذا الملك الخطوط العريضة لسياسية الرعب التي سار عليها الملوك الأشوريين اللاحقين. ومع ذلك فإن النظرة إلى الأشوريين بأنهم كانوا قومًا جزارين يعتدن على القرويين الآمنين القائمين بأعمالهم الخاصة بسلام هي نظرة من زاوية واحدة ففي الواقع كان في هذه الفترة تحركات عرقية على نطاق واسع أن لم توقف عند حدها كان من الممكن أن تدمر، أو تغير جذريا، مسيرة حضارة بلاد ما بين النهرين. وكان الحديد قد بدأ استعماله آنذاك على نطاق واسع وكان المصدر الرئيس لهذا المعدن المهم لجميع العالم المتمدن آنذاك هو منطقة معينة في المملكة الحثية.

وفي المنطقة الواقعة إلى الشرق من ذلك كانت قد غزت المنطقة أقوام تدعي المشكو المعروفة في العهد القديم بالميشيخ. وبعد اعتلاء تجلاتبليزر العرش بفترة قصيرة تدفقت مجموعة كبيرة من هذا الأقوام تقدر بحوالي عشرين ألف، نحو الجنوب لغزو الأقليم الأشوري كموخ Kummuh وكان رد فعل تجلاتبليزر حازمًا حيث توجه نحو الشمال الغربي إلى طور عابدين وهاجم الغزاة هناك محرزا انتصاراً حاسمًا. ثم توجه شرقًا عبر كموخ لاتخاذ ما يلزم تجاه بعض العناصر من السكان المحليين من الذين ساعدوا الغزاة القادمين من الشمال. وفي حملات السنوات التالية تمكن تجلاتبليزر من توسيع وتقوية سيطرته على المنطقة الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من بلاد أشور وتوغل في النهاية في

آسيا الصغرى إلى منطقة لم يسبق أن وصلها أي من التوجه نحو الغرب إلى الساحل السوري للحصول على الأخشاب وفوائد أخرى من تجارة الفنيقيين. وسرعان ما قدمت كل من كلبا Gulba وصيدا Sidon وارواد الجزية، ويذكر تجلاتيليزر كيف أنه أخذ في رحلة بحرية أمكن خلالها اصطياد ناخيرو (وهو نوع من الحيتان) وتقديمه له وبالأسلوب نفسه، أرسل له الملك المصري تمساحًا حيا.

وعلى الرغم من أن تجلاتبليزر تمكن من وقف التهديدات في الشمال إلا أن مشاكله مع القبائل الأرامية التي كانت تضغط على البلاد من الغرب ظلت مستمرة كما هي الحال في عهد خلفائه لعدة أجيال. وقد سبقت الإشارة أكثر من مرة إلى ضغط الأقوام القادمة من الصحراء وقد كان من المشاكل المتكررة التي أثرت في جميع بلاد الهلال الخصيب. وكانت هجرة إبراهيم وغزو فلسطين بقيادة إيشوع Jushu جزءاً من هذه الظاهرة. ومع ذلك فقد كان الضغط على الحدود الغربية لبلاد أشور قوي بصفة خاصة وذلك في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ولا بد من شرح الأسباب الخاصة التي دعت لذلك. فقبل عام ١٢٠٠ ق.م مباشرة انهارت قوة الحثيين أمام غزو بري وبحري لجماعة من الأقوام القادمة من أوربا الشرقية وكان الفلسطينيون جزءاً منها. وقد تمكن رمسيس الثالث ملك مصر من أن يهزمهم بحراً ويبعدهم عن مصر غير أنهم تمكنوا من السيطرة على سوريا وفلسطين وقد شرح سفر القضاة نتائج ذلك ولعله قد أدى إلى تحركات قبلية إلى خارج فلسطين تفسر الضغط باتجاه الشرق. وهناك بعض الدلائل أيضًا أن مملكة سبأ قد ظهرت في هذا الوقت ولعل ذلك أيضًا قد سبب توجه بعض قبائل الجنوب نحو الشرق.

أما العلاقة بين بلاد أشور وبلاد بابل في عهد تجلاتبليزر _ الأول فغير واضحة تمامًا. فقد كانت هناك غارات من كلا الطرفين ولعل الأشوريين قد حصلوا على بعض المساحات عند الحدود غير أنه ليس هناك ما يشير إلى أن تجلاتبليزر _ قد حاول غزو بابل. وفي الواقع لم يكن هناك ما يشير إلى أن تجلاتبليزر _ قد حاول غزو بابل. وفي الواقع لم يكن هناك فوائد لبلاد أشور في ذلك فقد كانت جميع الطرق التجارية الرئيسة في آسيا الغربية في إيدي الأشوريين وكانت التجارة مستمرة دون أي عرقلة لتجلب إلى بلاد أشور فوائد جمة باعتبارها الدولة الوسيط من الساحل البحري الفنيقي وموانئ شمالي سوريا إلى بلاد بابل.

الرفاهية الاقتصادية

وقد ساعدت الرفاهية الاقتصادية التي نتجت عن هذه التجارة النشطة تجلاتبليزر الأول أن يقوم بأعمال عمرانية كثيرة منها بناء المعابد وتعميرها مما ضمن له تراثا ضخمًا كان ينظر إليه باجلال من قبل خلفائه.

وزاد ضعط الاراميين الذي كان واضحًا بعد حكم تجلاتبليزر الأول فورث خلفاؤه تدهورًا قوميًا وتقهقرا. وكان خليفة تجلاتيليزر المباشر هو ابنه أشارد ـ ابل- ايكور الثاني الذي لم يحكم سوى سنة واحدة، اعقبه أشور ـ بيل ـ كالا (١٠٧٤ ـ ١٠٥٧ ق.م) الذي قام بحملات عسكرية على كل من اورارتو والأراميين: ومما تجدر ملاحظته أنه على الرغم من الصراع القومي، فقد أدخلت الإلهة الأرامية إلى مجموعة الإلهة الآشورية وأن هذا الملك ناشد آلهة بلاده الأمورو ضد أي من يحاول تدمير نصب معين خاص به. وكما يحدث عادة بين الذي يواجهون خطرًا عامًا واحدًا، فقد كانت العلاقات بين أشور ـ بيل ـ كالا وبين مردوخ- شابك ـ زير ـ ماتي (١٠٨٠ ـ ١٠٦٨ق.م) ملك بابل المعاصر له طيبة. ونتيجة هجوم اتحاد من رؤساء الأراميين، ذهب الأخير إلى عاصمة بلاد أشور طالبًا المساعدة العسكرية (التي لم يتمكن أشور ـ بيل- كالا من تقديمها)، وعند رجوعه وجد أن بابل قد احتلت من قبل الغزاة ولم يكن آشور بيل ـ كالا في موقف يمكنه من تغيير الوضع فاعترف بالملك الأرامي الغاصب أدد- ابال ـ ادينام (١٠٦٧ ـ ١٠٤٦ ق.م) وأقام معه حلفًا عن طريق المصاهرة. ولعل ازدياد ضغط الأراميين وتدخلهم في الطرق التجارية قد أدى إلى ضائقة اقتصادية واضطراب اجتماعي، فانتهى عهد أشور ـ بيل ـ كالا بتمرد داخلي وعند وفاته انتقلت ولاية العرش إلى غير وارثها الشرعي.

وكان الوضع غامضًا جدًا لمدة تزيد عن القرن في بلاد أشور وبلاد بابل بالرغم من معرفة تسلسل حكم الملوك. وكانت هذه الفترة فترة متأزمة جدًا وكان الاضطراب شديدًا إلى درجة أن الحوليات التي تعود إلى حوالي عام ٩٩٠ق.م تذكر بأنه: "لفترة تسعة سنوات متتالية لم يخرج الآله مردوخ ولم يأت الإله تابو"، وهذا يعني أن مراسيم عيد رأس السنة، التي كان يخرج فيها مردوخ إله بابل من المدينة إلى معبد بدعي بيت ـ اكيتو حيث يزوره

نابو إله بورسيا عند عودته إلى المدينة، لم تتم. وحيث أن هذه المناسبة هي أهم مناسبة في السنة البابلية، فإن النص المذكور يشير إلى أن الإدارة كانت مضطربة تمامًا في هذه الفترة. وكذلك قاست بلاد أشور وخلال حكم أشور- رابي الثاني ١٠١٠_ ٩٧٠ ق.م) تمكن الأراميون من الاستيلاء على المستوطنات الأشورية على أواسط الفرات ولو أن الملك نفسه قام بحمله إلى الأمانوس إلى الشمال من ذلك.

وفقدت تحركات الأقوام الأرامية، التي سببت اضطرابات في بلاد أشور وبابل، قوتها بعد حوالي عام ١٠٠٠ ق.م وبدأت القبائل بالتكتل في عدد من الدويلات الصغيرة. وتبلورت القبائل أرامية غير أنها ضمت عناصر أرامية، وذلك في الوقت نفسه وكجزء من التطور أخرى أكثر أرامية غير أنها ضمت عناصر أرامية، وذلك في الوقت نفسه وكجزء من التطور نفسه في مملكتي إسرائيل ويهوذا. كما نجد في العهد القديم ذكر لدويلات أخرى أكثر أرامية مثل دمشق وبيت _ أديني ("بيت عدن" والقراءة الدقيقة "بيت _ أدن" كما وردت في العهد القديم سفر عاموس: ١: ٥).

ولابد أن وجود هذه المجموعات الصغيرة والكثيرة ذات العلاقات العدائية في وادي الفرات قد خلق صعوبة كبيرة للأشوريين منذ البداية، حيث لم يكن هناك قوة تتمكن من المحافظة على الطرق التجارية التي اعتمدت عليها حياة الأشوريين كما أن وجود أعداد كبيرة من الحدود المستقلة التي كان على القوافل عبورها قد سبب في زيادة الضرائب المفروضة التي كان على القوافل عبورها قد سبب في زيادة البضائع التي كانت تحملها. وفي بلاد بابل تمكن أفراد القبائل أن يعبروا من خلال الأراضي الواقعة بين المدن الكبيرة ويستقروا على الضفة الشرقية من نهر دجلة، بينما كانت منطقة الأهوار في الجنوب (بلاد البحر) قد احتلت من قبل الكلدو، وهم أقواء ذوي علاقة بالا راميين. وكان بإمكان هؤلاء التدخل بالتجارة البحرية عن طريق الخليج العربي. وباستقرار القبائل الأرامية التدريجي وتكتلهم في دويلات مستقرة واعترافهم بالعلاقة بين رفاهيتهم وبين المواصلات الدولية غير المعوقة، بدات التجارة تمر ثانية عبر سوريا. ومن الممكن تصور الوضع المتغير بمقارنة الوضع المضطرب المتمثل في سفر القضاة في عهد الملك سليمان بعد قرنين من ذلك التاريخ.

لذا فقد واجهت السلالة الأشورية الجديدة التي أسسها أشور- رايي الثاني في بداية القرن العاشر تحسنًا بطيئا في الأوضاع. ويذكر أشور ـ دان الثاني (٩٣٣- ٩١٢ق.م) من ملوك هذه السلالة، وهو ابن تجلاتبليزر الثاني (٩٦٦- ٩٣٥ ق.م) الذي لا يعرف عنه شيئًا كثيراً في احد النصوص كيف أنه أعاد بناء "بوابة الحرفين" في أشور التي كان تجلاتبليزر الأول المشهور قد أنشأها تهدمت من بعده. وحيث أن هذه البوابة هي البوابة الرئيسة في أشور للمواصلات مع الغرب، لذا فإن ذلك يدل على تحسين العلاقات التجارية في ذلك الاتجاه.

ومهما يكن الحال ففي عهد أدد ـ نراري الثاني (٩١١- ٨٩١ ق.م) ابن أشور ـ دان دخلت بلاد أشور ثانية في فترة ازدهار اقتصادي وتوسع عسكري. وتمشيا مع الاستراتيجية الأشورية التقليدية فقد وجه أدد ـ نراري أول حملاته إلى الأرضي الواقعة جنوبي الزاب الأسفل. وكما حدث من قبل عندما قام أشور ـ ريش- إيلي بحملات في نفس الاتجاه، فقد تسبب ذلك في قيام صدام بين بلاد أشور وبابل التي كان ملكها يحاول أن يبسط نفوذه إلى ما وراء حدودها الشرقية، باعتبارها مدينة عسكرية مهمة.

وبعد أن ضمن الحدود الشرقية والجنوبية، كان أدد نراري قادراً على التوجه إلى الأقاليم الواقعة غربي دجلة حيث كانت معظم المنطقة لا تزال في أيدي القبائل الأرامية وأحلافها. وقد كان قادراً على إجبار هؤلاء الرحل على الاعتراف بسلطانه رسميًا وذلك بدفع الجزية. كما استولى في الوقت نفسه تحت سيطرة الأشوريين وأعاد تحصينها واستخدامها لحماية الطرق التجارية.

والي الشمال من ذلك قليلاً، حول نصيبين، في المنطقة التي كانت تعرف لدى الأشوريين بها نيكلبات، كانت قد تبلورت أحدى المماليك الصغيرة العديدة نتيجة لفقدان زخم الأقوام الأرامية. وقد أثبتت هذه الأقوام المعروفة بالتيمانيين Temanites (ولعلها لا تتلعق بتيمان Timan الواردة في العهد القديم والتي كانت جزءا من ادوم Edom) بأنها عدو عنيد. وفي عدد من الحملات القوية التي استخدمت فيها جميع وسائل الحصار الأشورية اكتسح ادد ـ نراري هذه المملكة المستقلة مدينة بعد مدينة واقتاد أخيراً ملكها

أسيـراً إلى أشور بعد أن لقـى عدد من الأمراء المحليين حتفهم في المـنطقة. ثم وسع ادد ـ نراري النفوذ الأشوري إلى شواطئ الخابور، مستوليا على كوزانا)كوزان في العهد القديم: سفر الملوك الثـاني اصحاح ١٧ :٦ وغيره، التي أصبـحت فيما بعد عاصـمة لإقليم أشوري وتتمثل حـاليًا: بتل حلف) وجعل أميـرها تابعًا له. وقد أجبر أمـراء المدن المحليين الأخرين على طول نهر الخـابور على الاعتـراف بالسيادة الأشـورية وذلك من خلال دفعـهم الجزية. وبهذه الوسائـل تمكن ادد- نراري من أن يضمن السيطرة على طول نهر الخـابور، ويحصل على أمن حدوده الغربيـة. كما ضمن حدوده الجنوبية بمعـاهدة مع الملك البابلي ابرمت بعد الصدام المسلـح الذي وقع بين القوتين في بداية حكم ادد- نراري، وتعـرف وثيقـة المعاهدة هذه بالتاريخ التـعاصري Synchronous History. وقد اشتق هذا الاسم من حـقيقة أن الوثيقة تذكـر كأساس لإقرار السـلام موجزا لتاريخ المنازعات على الحـدود بين القوتين في الماضي. لذا كانت هذه الوثيقة مهمة بالنسبة لتاريخ الفترة السابقة لحكم ادد ـ نراري الثاني.

وهناك مجـموعة أخرى من الوثائق ذات الأهمـية في تثبيت تسلسل التـاريخ الأشوري تبدأ من هذا العهد، وهذه المجمـوعة هي قوائم الليمو Limmu. ففي بداية عهد كل ملك، كـان الملك يرعي احتـفال عـيد رأس السنة في الـعاصـمة. أمـا في السنوات التاليـة، فكان الاحتـفال برعاية كبـار الموظفين الملكيين بالتعاقب. وفي فـترة الوظيفـة، كان الموظف المعني يدعى ليمو Limmu. وكانت السنة الأشورية تؤرخ اسـتنادا إلى ذلك. فكان التاريخ على الوثائق القانونية يظهر على النحو التالي:"في سنة ليمو فلان بن فلان". وقد عثر على قوائم الليمو هذا فـأمكن تثبيت تسلسلها منذ بداية القـرن التاسع وحتى أواخر القـرن السابع قبل الميلاد. ويرافق كـثير من هذه القـوائم أشارات مختـصرة عن الحمـلات العسكرية أو بعض الأحداث الأخـرى. ومن حسن الحظ أن المدخل لسنة معـينة هو ذكر كسـوف للشمس في شهر معين. وحيث أمكن حسـاب تاريخ وقوع هذه الظاهرة بدقة من قبل علماء الفلك في الوقت الحاضر، فقد أمكن تثبيت أحدى السنوات بدقة. ومن خلال هذه السنة المثبتة بالذات أمكن تثبيت سلسلة من التقاويم شملت فترة أكثر من قرنين ونصف القرن. لذا يمكن تأريخ الأحداث الـتي وقعت خـلال معظم النصف الأول من الألف الأول قـبل الميلاد ابتـداء من عهد ادد ـ نراري بصورة دقيقة وبحدود السنة الواحدة.

وفي عهد ادد ـ نراري، كانت الضرائب تنهال على البلاد من التابعين ومنها العربات والحبوب والخيل والآنية الذهبية والخمور والمأكولات بصورة عامة والماشية والأغنام. ولم تبدد هذه الزيادة في الثروة بل استخدمت كلها، أو جزءا منها على الأقل، لتطوير اقتصاد اشور. ويذكر ادد نراري على وجه الخصوص قائلاً:

"شيدت بنايات إدارية في بلادي. واقمت وسائل الري فيها وزدت عدد مخازن الحبوب عما كان عليه كانت عليه في الأيام السابقة. وزدت عدد الخيل المعدة للنير...".

وربما كان ادد- نراري هو الذي ادعى، كما وردفي أحد النصوص الذي لا يشير إلى اسم الكاتب، بأنه جلب الجمال ذات السنامين إلى آشور ورباها على شكل قطعان.

ويبدو أن التحالف مع بابل قد سهل التجارة مع الجنوب حيث يذكر نص أخر إعادة بناء مسناة أشور، ومن الواضح أن ذلك لفائدة التنقل النهري: وقد كشف في مدينة النمرود عن مسناة مشابهة من فترة متأخرة شيدت بقطع ضخمة من الصخر. ومما لا شك فيه أنه كان هناك في فترات معينة مواصلات نهرية مزدهرة في العاصمة الأشورية.

وخلال السنوات الستين التالية، اتبع الملوك الآشوريون سياسية ثابتة في تدعيم أعمال ادد ـ نراري. فإن أمن بلاد أشور تطلب السيطرة، بالحاميات العسكرية والفتوحات، على الأقوام الجلية إلى الشمال وإلى الشرق وكذلك السيطرة على الطرق التجارية إلى كبدوكيا والبحر المتوسط. وأن تحقيق هذه الأمنيات قد تضمن آجلا أو عاجلا أحداث تغيير في وضع مناطق الحدود، الواقعة على الأطراف من مناطق تدين بالتبعية وتدفع الضرائب إلى أقاليم مندمجة اندماجا كليا في الإمبراطورية. وقد شغل توكلتي- نورتا الثاني (٨٩٠- ٨٨٤ ق.م) ابن ادد ـ نراري وخليفته، سنواته الأربعة الأولى في حملات ضد بلاد نائيري الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة وأن ونجح أخيراً في إخضاع ملك نائيري وجعله تابعًا لبلاد أشور وربطه بالقسم وحمله مسؤولية تزويد الخيل لقوة المشاة الخفيفة التي كانت قد استخدمت لأول مرة في الجيش الأشوري. وفي أواخر السنة نفسها كان بإمكان توكلتي نورتا أن يهتم بالإقليم الجبلي شرقي بلاد أشور، فضمن أمن المنطقة الواقعة بين الزاب الأعلى والزاب الأسفل. وقد مهد ذلك الطريق بحملة نحو الجنوب إلى المنطقة الواقعة

شرقي دجلة وقد قام بهـا في الربيع التالي. وكانت السلالة البابلية آنذاك ضعـيفة إلى درجة وقد قـام بها في الربيع التـالي. وكانت السلالة البـالية آنذاك ضعـيفة إلـى درجة أن توكلتي ننورتا تمكن من الوصـول إلى دور كوريكالزو (عقـرقوف حاليًـا قرب بغداد) وسـبار دون ظهور أية مـعارضة بـابلية كمـا يبدو. تقدم الجـيش الأشوري من سـبار بدون أية معـارضة أيضًا، عـبر نهر الفـرات ضاربًا حدود الأراضي الأشـورية إلى الأعلى حتى نهـر الخابور ثم اتجه بعـد ذلك شمـالا بمحاذاة ذلك النهر حـتى نصيـبين واخذ في طريقة الجـزية من الحكام المحلين وانحرف وقليلاً وقام بهـجوم أخير على مشكو Mushkuفي آسيا الصغرى. أما في الشؤون الداخليـة فقد استـمر توكلتي ـ ننورتا على اتباع سيـاسية ادد ـ نراري فعمل على تطوير الزراعة وإنتاج الحبوب بواسطة الري وإقامة مستوطنات إجبارية للسكان.

وينتقـد المعلقون المحـدثون بصورة عامـة آشور ناصـربال الثاني 859 -883)ق.م) ابن نوكلتي ـ ننورتا لصـراحته وتـلذذه الظاهري في الحديث عن القـسوة التي انزلهـا بالبلدان المفتوحة وقد أهملت غالبًا انجازاته الإدارية في غمرة السخط الخلقي عليه. وكانت نشاطات أشور ناصر بال الأولى خاصة بالمناطق الجبلية إلى الشرق حيث وسع النفوذ الآشوري على الأقاليم الجبلية وضـمن الاعتراف بسيادة بلاد آشور من قبـل الأقوام التي كانت حتى آنذاك خارج فلك النفوذ الاشوري وكان لابد من القـيام بحملتين لإخضاع زاموا (Zamuaوهو وادي السليـمانيـة المنيع الذي يمكن اغلاق ممراته بسـهولة). وإلى الشـمال الغـربي من بلاد أشور نفسها في جـبال كاشياري Kashiari تقع منطقة كانت تابعة فيـما مضى لبلاد آشور ولكنهـا توقفت منذ زمن عن الاعـتـراف بالحكومة المركـزية فقـام آشور ناصـر بال Khan (حاليًا كرخ) وحـيث كان الآشورين المستعمرون يسـتقرون، فإنهم كانوا ينتقـمون وبقسوة من كل تمرد يحدث في المنطقة.

وفي الغرب ظهرت دولة أراميـة قوية أخرى هي بيت ـ ادين وعاصمتها تل ـ بارسب Tilbarsip (تل أحـمر حـاليًـا) جنوبي في المناطق الخـاضـعة للأشـوريين على طول نهـر الخابور وأعـالي الفرات، وكـانت مدينـة سورو Suru في بيت ـ خالوبي Bit Khalupe مركز ذلك حيث نصب عليها ملك صوري من بيت ـ ادين. وقد ضمن إجراء آشور ناصر

بال الحازم والقوى إخضاع العصاة وأسر الداعية، وتعطينا قائمة الغنائم التي أخذت من قصر ومعابد المدينة المهزومة فكرة عن ثراء الدولة الآرامية الواقعة على ضفاف الأنهار، فبالإضافة إلى الفقرات الاعتيادية من الغنائم كالماشية والأغنام والفضة والذهب، هناك ذكر لانية من البرونز والحديد والرصاص والأحجار الكريمة والمراهم والأقمشة الصوفية والكتان وخشب الأرز وغيره من الأخشاب ذات الروائح الطيبة. وقد لاقى قادة التمرد حتفهم أما بالخازوق أو بسلخ جلودهم وهم أحياء أو ببنائهم في الجدران وقد ضمنت هذه الإجراءات القاسية السلام في المنطقة لمدة خمس سنوات. ثم ظهرت الاضطربات من الاتجاه المعاكس حيث قام نابو _ ابال _ ادن ملك بابل بإرسال قوة قوامها ثلاثة الآلف جندي لمساعدة قبيلة السوهو المتمردة على أواسط الفرات وقد اتجهت إلى الأعلى بمحاذاة النهر لتستولى على حصن سوهو وتتخذه قاعدة لها فقام الجيش الأشوري الذي كان آنذاك في مقاطعة كموخ Kummukh بزحف سريع نحو الخابور والحق هزيمة شنيعة بالعصاة في معركة استمرت يومين، وقد وصلت تأثيرات هذه الهزيمة السياسية، كما تدعى حوليات آشور ناصربال بعيدًا:

"وثبت القوة والعزم على بلاد سوهو، وامتد الخوف من سلطاني إلى بلاد كاردونياش (شمال بلاد بابل) وسيطر الخوف من اسلحتي الذي يبعث على القشعريرة بلاد كلدو (جنوب بلاد بابل)".

ومع ذلك فقد حدث تمرد آخر في المنطقة في السنة التالية على الرغم من القضاء عليه بسهولة، وربما كانت بيت _ ادیني وراء هذا التمرد الأخير، حيث قام اشور ناصر بال في السنة التالية لذلك بهجوم على إحدى مدنها وأجبرها على الاعتراف بالسيادة الآشورية. وقد مهد ذلك الهجوم الطريق إلى الساحل السوري وفي السنة التالية زحف الجيش الآشوري من غير مقاومة تذكر إلى البحر المتوسط عن طريق كركميش واورنتس Orontes وأخذ الجزية من الدويلات
الصغيرة في الطريق ومن المدن الساحلية جنوبًا إلى مدينة صور.

وفي السنوات الخمس عشرة الباقية من حكم آشور ناصر بال تمتعت الإمبراطورية

بسلام واستقرار كبيرين. ولم يذكر سوى حملة واحدة عام ٨٦٦ ق.م عندما كان من الضروري اتخاذ إجراءات حاسمة ضد المتمردين في كاشياري، وهو إقليم سريع التأثر بضغط دولة اورارتو ذات القوة الكامنة (في العهد القديم ارارات ثم عرفت بعد ذلك بارمينيا).

أما الشؤون الداخلية، فإن أهم إنجازات أشور ناصربال هي تأسيس عاصمته الجديدة في كلخو (في العهد القديم كالح، نمرود الحالية) التي افتتحت باحتفال كبير عام ٨٧٩ق.م وقد وصفت مسلة اكتشفت في النمرود عام ١٩٥١ هذا الحدث وبعض أوجه سياسته الداخلية الأخرى بالتفصيل. وقد أسكن في المدينة بصورة عامة الأقوام المندحرة التي أخذت أثناء حملاته المختلفة وأقيمت مشاريع إرواء لزيادة خصوبة المنطقة وزرعت الحدائق بأنواع كثيرة من النباتات والأشجار التي جمعها الملك، وشيدت المعابد وزخرفت وأنشأت حديقة للحيوانات جمع فيها الملك وربى قطعان من الثيران والأسود والنعام والقرود كما قدم له الحكام الهدايا من الفيلة المتوحشة وكان مصير جميع هذه الحيوانات، باستثناء القردة، القتل من قبل الملك في احتفالات الصيد. وتضمن الاحتفال بتشديد كلخو وليمة ضخمة حضرها ما يقرب من سبعين ألف شخص من العمال ذكورا واناثا، والموظفين الحكوميين وممثلي الحكام والأقوام التابعة جاءوا سوية ليحتفلوا لمدة عشرة أيام.

وقد استمر شيلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق م) ابن آشور ناصربال وخليفته في أعمال أبيه وعززها وكرس السنوات الأولى من حكمه لتقوية مركز بلاد آشور في الغرب فقام في سنته الأولى بحملة إلى ساحل البحر المتوسط لم تلق كما يبدو أية مقاومة. وفي هذه المرحلة هوجمت بيت ـ أديني التي كان قد أخضعها آشور ناصربال وجعلها تدين بالتبعية، ووضعت تحت سيطرة مباشرة. ولا يعرف بالضبط هل نظرة شيلمنصر هذه كانت نتيجة لأعمال عدائية واضحة من قبل بيت ـ أديني أم أنها مجرد نتيجة اعتقاده بخطرها الكامن. ومن المؤكد أنه كان بإمكان بيت ـ أديني السيطرة على مصادر عسكرية هامة حيث استلزمت السيطرة عليها قيام شيلمنصر بثلاث حملات قبل أن يتم أسر الملك والعائلة المالكة. وفي أثناء تلك الحملات، قام شيلمنصر بإعادة تثبيت السيطرة الآشورية على الأقاليم الواقعة إلى الشمال مباشرة حيث كان توسع النفوذ الأورارتي.

وقد أعيد استيطان بيت ـ أديني وتنظيمها كمقاطعة آشورية وبذلك تمكنت آشور من السيطرة الكاملة على الطرق التجارية المهمة على طول أعالي الفرات إلى كيليكيا Cilicia وآسيا الصغرى. وكان ذلك تهديد خطر لدول سوريا التجارية القوية التي سارعت لتشكيل حلف مضاد للآشوريين بزعامة أدد ـ أدري (في العهد القديم: بن هداد) حاكم دمشق شمل فرقا من إسرائيل وآمون، وقد التحق الهجوم الكبير على الجيش الآشوري قرب قرقر الكوارث بالسوريين ووصلت خسائرهم (استنادا إلى أقل ادعاء آشوري) أربعة عشر ألف من مجموع سبعين ألف مسلح.

وانتاب السياسة الآشورية بعد ذلك تحول مؤقت، حيث أصبح من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة في بلاد بابل حيث اشتغلت نيران الثورة ضد الملك الذي يؤيده الآشوريون. ومن الواضح أن جميع أجزاء جنوب بلاد بابل كانت آنئذ تحت سيطرة الشيوخ الكلدانيين المحليين، فوجد شيلمنصر ضرورة لأن يظهر القوة ضد هذه القبائل لإجبارهم على الاعتراف بالسيادة الآشورية من خلال دفع الجزية.

ثم التفت بعد ذلك إلى الغرب ففي عام ٨٤٩ ق م جعلت كركميش، وهي آخر الدول المستقلة اسميا الواقعة على أعالي الفرات والتي كانت تدفع الجزية، تحت الحكم الآشوري المباشر. ومع ذلك فقد ظل الحلف السوري في الغرب يكون تهديدا كبيرا للوضع الآشوري في المنطقة. وعلى الرغم من عدد من الانتصارات الآشورية البسيطة في السنوات الأربعة التالية التي كانت الحملة الأخيرة منها تضم جيشا آشوريا ضخما يتألف من مائة وعشرين ألف جندي، فلم يكن بالإمكان تحقيق انتصار حاسم على الحف في تلك الفترة.

وبعد أربع سنوات عندما وجه شيلمنصر القوة الآشورية الرئيسة ضد الغرب، كان الوضع قد تغير. ففي ذلك الوقت كان قد توفي اثنان من الشخصيات البارزة في الحلف السوري هما أهاب ملك إسرائيل وادد ـ أدري ملك دمشق، وكان الأخير قد اغتيل استنادا إلى ما ورد في العهد القديم (سفر الملوك الثاني إصحاح ٨: ١٥) من قبل خادمه حزائيل Hazael الذي اغتصب العرش بعد ذلك. وبموت أدد ـ أدري انحل الحلف. ويزودنا سفر الملوك الثاني بصورة عن السلالات والمكائد الدولية والصراعات التي تبعت ذلك. فقد

خسر حزائيل الذي لم يكن له حليف آنذاك، ستة عشر ألف من رجاله وكثيرا من حدوده بالرغم من أن دمشق نفسها لم تؤخذ. في حين دفع ياهو Jehu في إسرائيل وملوك صور وصيدا الجزية إلى شيلمنصر. أما مصر فقد أظهرت الصداقة بإرسال هدايا تتضمن جمال عربية ذات سنام واحد وفرس النهر وغيرها من الحيوانات الغريبة. وفي السنوات الثمانية التالية كان شيلمنصر منشغلا بتثبيت موقفه في الغرب فوسع سلطانه باتجاه الشمال الغربي ليشمل تابال Tabal (وفي العهد القديم: توبال) وقو Qu (كيليكيا Cilicia)وجعلهم من التابعين. وفي وسط سوريا الحق المزيد من الهزائم وخسران الأراضي لحزائيل.

وهكذا أصبحت آشور مسيطرة تماما على سوريا وعلى جميع الطرق التجارية إلى آسيا الصغرى. وبذا أصبح إنتاج الحديد الذي كان لايزال إلى درجة كبيرة حكرا على آسيا الصغرى تحت سيطرة الآشوريين تماما كما كان إنتاج الخشب في لبنان ومناجم الفضة في الأمانوس. كما كان أصحاب الحرف والفنيين السوريين تحت إمرة شيلمنصر وقد أرسل الكثير منهم إلى المدن الآشورية، وهذا يذكرنا بالطريقة التي استخدم بها الملك سليمان في القرن السابق أصحاب الحرف من صور وجبيل (بيبلوس القديمة شمالي بيروت) كالنجارين والنقارين والحدادين لبناء قصره ومعبده (سفر الملوك الأول ٥: ١٨، ٧: ١٣، ١٤) وقد عثر خلال تنقيبات النمرود (كالح) على كميات كبيرة من العاج المنحوت لاسيما في المعبد الذي كان قد بناه شيلمنصر في الجهة السفلى من المدينة وقد تأكد الآن بأنها كانت من صنع الحرفيين السوريين، كما أمكن التعرف على تحصينات كان قد بناها في مدن آشور تكشف عن استخدام طرق اتبعت لأول مرة في بلاد ما بين النهرين في هذه الفترة ثم استخدمت دائما بعد ذلك، ولعلها كانت بتأثير الأساليب السورية حيث من المؤكد أن علم التحصين في المدن السورية كان متطورا جدا بحيث تمكنت بعض المدن من مقاومة الحصار لمرات عديدة. ولعل باب بلوات البرونزي الشهير، وهو عبارة عن أحزمة معدنية مثبتة على أبواب خشبية ومزخرفة بواسطة الطرق بمشاهد من حملات شيلمنصر الرئيسة، يدين كذلك بعض الشيء إلى عمال المعادن من طراز حيرام في صور في القرن السابق وكان : "مملوءا بالحكمة والفهم والحيلة ليعمل جميع الأعمال بالنحاس" (أي البرونز)، (سفر الملوك الأول: ٧: ١٤).

وباستثناء بعض الاضطرابات البسيطة في الغرب التي كان رد فعل بلاد آشور فيها للانتقام لمقتل أحد التابعين الموالين في عصيان قويا، فقد كانت بقية نشاطات شيلمنصر العسكرية موجهة للشمال والشرق. وكانت أورارتو، ولعلها كانت نفسها في ذلك الوقت تحت ضغوط الأقوام البربرية من الشمال، تؤلف تهديدا متزايدا لآشور، ليس شديدا في المنقطة التي تقدمت فيها كلا المملكتين كما في أقصى الشمال الغربي وأقصى الشرق حيث كانت كلا الإمبراطورتين في تنافس للسيطرة على الطريق التجارية الرئيسة في الحالة الأولى من الطريق من سوريا إلى آسيا الصغرى وفي الحالة الثانية الطريق القادمة من الهند والصين عبر إيران. لذا تضمنت حملات شيلمنصر الباقية صدامات غير حاسمة مع قوات أورارتو وبعض الحملات التأديبية ضد الأقوام التابعة والمتمردة في الجبال الكردية وإيران.

وفي السنوات الأخيرة من حكم شيلمنصر الطويل حدث تمرد واسع في البلاد. فحسب تصور بلاد ما بين النهرين كما هي أيضا في أجزاء كثيرة أخرى من العالم (كما أثبت ذلك السير جيمس فريزر) كانت الملكية تعتبر وظيفة، غالبا شبه مقدسة، تمنحها الآلة لفترة محدودة من الممكن سحبها بناء على رغبة الآلهة. وفي أجزاء كثيرة من العالم كان الملك يقتل متى توقف عن إظهار قوته الجنسية. وفي بلاد بابل كان الملك يقوم سنويا بتسليم رزمي للوكيته إلى الإله. ولم يكن هناك مثل هذا التقليد السنوي في بلاد آشور ولكن هناك من يرى بأن مدة الملكية كانت محددة بثلاثين سنة. ويستدل على ذلك من الحالات التي كان الملك يعمل فيها كموظف اللمّو فقد كان الملك دائما يعمل كليمو في العيد السنوي للسنة الأولى من حكمه في حين كان يمثل في السنوات الأخرى بسلسلة من كبار الموظفين. ولم يقم شيلمنصر الثالث بذلك في السنة الأولى من حكمه فقط بل في سنته الحادية والثلاثين أيضا مما يشير إلى أنه كان قد بدأ فترة جديدة من ملكه. وبعد ذلك بفترة قصيرة، قام آشور ـ دانن ـ إيلي ابن شيلمنصر بقيادة تمرد ضمن فيه تأييدا واسعا بما في ذلك تأييد المدن القديمة المهمة كمدينة نينوى وآشور وأربائيلو)أربيل الحالية) غير أنه لا يمكن إثبات ذلك وربما كان هناك علاقة مباشرة بين تجديد شيلمنصر الملكية وبين العصيان.

وكان الابن الذي انتخب شيلمنصر خليفة له هو شمشي ـ أدد الخامس 823)ـ ٨١١ ق م) الذي كان مشغولا في سنوات حكمه الأولى وكذلك قبل وفاة والده بإخماد العصيان

الواسع الذي قاده آشور ـ دانن ـ إيلي. وأخيرا تمكن من تثبيت موقفه بمساعدة ملك بابل، الذي اضطر أن يعترف بسيادته بموجب معاهدة رسمية. وما أن تمكن شمشي ـ أدد بمساعدة بابل ضد المدن المتمردة، من السيطرة على بلاده حتى وجه حملاته الثلاثة الأولى ضد المناطق الشمالية والشمالية الشرقية. وظلت أورارتو تشكل تهديدا متزايدا وكانت معظم نشاطات شمشي ـ أدد العسكرية في هذه السنوات موجهة لضمان تأييد زعماء بلاد نائيري لبلاد آشور التي كانت تؤلف حاجزا جنوبي غربي بحيرة وان. وإلى الشرق من ذلك كانت هناك تحركات عرقية جديدة تزيد في تعقيد الموقف. فكان الميديون، وهم فرع من الأقوام الإيرانية ذكرت لأول مرة في عهد شيلمنصر الثالث، قد هاجروا حديثا إلى المنطقة جنوبي شرقي بحيرة أورميا. وكان إظهار القوة ضد المدن الميدية قد ضمن احترام النفوذ الآشوري إضافة إلى غنائم كثيرة واستعداد الدول الصغيرة الأخرى في المنطقة الشرقية لدفع الجزية.

وكان شمشي ـ أدد الآن في موقف مغاير تماما عما كان عليه عندما احتاج لمساعدة بابل لإخماد تمرد مدنه. فقد كان من القوة إلى درجة أنه وجه اهتمامه إلى الجنوب من نائيزي زاحفا بمحاذاة دجلة إلى المناطق التي انحدر منها الكاشيون سابقا إلى بلاد بابل وكانت عادة ضمن إطار النفوذ البابلي. وبعد فتح هذه المنقطة وتهجير سكانها، عبر شمشي ـ أدد نهر ديالي إلى القسم الشرقي من بلاد بابل نفسها حيث أنه تقدم، كما يشير إلى ذلك نفسه، لتدمير منطقة الحدود بأكملها وسلب وحرق المدن وخرب البساتين وكان ملك بابل مردوخ ـ بلاطو ـ أقبي Marduk-balatu-iqbi خليفة من ساعد شمشي ـ أدد للحصول على عرشه، حذرا فنظم حلفا من عيلام ونامري Namri، (وهي دولة شمال عيلام وليست نائيري) وقبائل الكلدانيين المستقلة في جنوب بلاد بابل وبعض القبائل الآرامية الباقية شرقي دجلة. ومع ذلك، فقد دحر الحلف البابلي في معركة ضارية ويبدو أن السنوات التالية قد شهدت نشاطا آشوريا عسكريا في وسط وجنوب بلاد بابل وقد شمشي ـ أدد القرابين في مدينة بابل نفسها عام ٨١١ ق م.

أن دوافع هجوم شمشي ـ أدد المفاجئ على بابل وكذلك الأهداف التي كان يرمي لتحقيقها مازالت غير واضحة، فليس هناك سبب لأن نفترض أن بلاد بابل كانت تؤلف تهديدا عسكريا لآشور بأي حال من الأحوال سواء لوحدها أو بالاتفاق مع حليفتها الممكنة

أورارتو. وربما كانت الإجراءات الآشورية تتعلق بالطرق التجارية فقد كانت قبائل الكلدو (الكلدانيون) مسيطرة غالبا على جنوب بلاد بابل في تلك الفترة واستنادا إلى قوائم الليمو فقد وجه شمشي ـ أدد حملته ضد تلك المنطقة بالذات وكانت مدن جنوب بلاد بابل في العهد الأول. كما أصبحت بعد ذلك ثانية، ذات أهمية بالغة كمراكز للتجارة من الهند والجزيرة العربية المارة شمالا عن طريق عمان والبحرين)دلمون) وفي فترة لاحقة، كانت التحركات العرقية في شمال إيران قد غيرت بالتأكيد الطرق التجارية في تلك المنطقة وأدت إلى استخدام طريق يمر من جنوب إيران (عيلام) وبابل. ولذا من المحتمل أن الغزو الميدي كان قد اتبع هذه التأثيرات وأن شمشي ـ أدد كان يحاول السيطرة على الطريق التجاري بين الموانئ الجنوبية عبر بلاد بابل على طول نهر دجلة. غير أنه ليس هناك في الوقت الحاضر دليل على ذلك بالرغم من أنه يجدر الملاحظة أن خليفة شمشي ـ أدد، أدد ـ نراري الثالث، أدعى على وجه الخصوص بأنه جعل ملوك (أي شيوخ) الكلدو تابعين له وفرض عليهم الجزية والضرائب.

ويكشف لنا أحد النصوص أن أدد ـ نراري الثالث لم يعتل العرش حتى السنة الخامسة من حكمه الأسمى. مما يؤيد الافتراض أن والدته شمو ـ رامات كانت وصية عليه بعد وفاة شمشي ـ أدد. وهذه السيدة التي درج اسمها وقصتها عند الإغريق بشكل محرف على هيئة سميراميس، كانت بلا شك شخصية مهمة حيث كان لها مسلة تذكارية في آشور إلى جانب المسلات الخاصة بالملوك وكبار موظفي بلاد آشور في حين ذكرت (وبشكل استثنائي بالنسبة لامرأة) إلى جانب الملك في أحد النصوص النذرية.

وقد شهد حكم أدد ـ نراري الثالث (٨١٠-٧٨٣ ق م) وحكم ابنه شيلمنصر الرابع (٧٨٢-٧٧٢ ق م) تزايدا كبيرا في قوة أورارتو وكان هناك صدامات عدة بين القوتين لاسيما في المنقطة الميدية. وفي الشمال الغربي أيضا تجاوزت أورارتو كثيرا على الحدود التي كانت خاضعة سابقا للسيطرة الآشورية وبصورة خاصة ميليد Melid وقد شجع ذلك ارتداد بعض الدول السورية الشمالية الأخرى. فقام الحلف الذي أعيد تنظيمه ليشمل دمشق وقو وكوركم Gurgum بهجوم على دولة حماة المؤيدة للآشورين (المشهورة في العهد القديم). وقد سارع أدد ـ نراري بتقديم المساعدة إلى تابعه الموالي وفي سلسلة من

الحملات قطعت الأولى بين الخلف في الشمال وبين دمشق ومن ثم القيام بهجوم مباشر على الأخيرة التي استسلمت ودفعت جزية كبيرة. وقد تبعت الدول السورية الأخرى ذلك وقلت بسيادة أدد ـ نراري. وقد كان من نتائج ضغط اورارتو في الغرب أن انتقل مركز سيطرة بلاد آشور الرئيس في سوريا إلى الجنوب وكنتيجة عرضية أشير إليها في العهد القديم (سفر الملوك الثاني ١٣ : ٢٤. ٢٥) كان من نتيجة ضعف دمشق أن تمكن يهواش في إسرائيل من استعادة بعض الأراضي التي أخذت من إسرائيل خلال فترة سيادة دمشق. وقد استمر تقدم الأورارتيين على طول جميع الحدود الآشورية الشمالية تقريبا خلال السنوات التي أعقبت حكم أدد ـ نراري الثالث ولعدم وجود حاكم من مستواه يتمكن من تقليص نتائج هذا التقدم فقد قاست بلاد آشور كثيرا. وتمكنت أورارتو من السيطرة التامة على المناطق الواقعة جنوبي بحيرة أورميا مباشرة وبذا سيطرة على الطرق التجارية القادمة من شمال إيران. وكان الوضع في الغرب أكثر تأزما حيث اكتسح الأورارتيون المنطقة وأخذوا من الآشوريين جميع المنطقة شمال وغرب كركميش تقريبا وبذا سلبوا آشور السيطرة على تجارة المعادن في آسيا الصغرى. وإلى جانب النتائج الاقتصادية التي لابد وإن كان لها تأثير مباشر على قابلية بلاد آشور العسكرية طالما أصبحت جميع المنقطة التي اعتمدت عليها آشور في تجهيز الخيل في أيدي الأورارتيين. وكان التأثير الاقتصادي لقطع الطرق التجارية إلى آسيا الصغرى قد أدى إلى اضطراب في سوريا فجهزت عدة حملات عسكرية ضد حتاريكا Hatarikka (في العهد القديم Hadarach) وأرباد ودمشق. وفي خلال فترة ضعف الآشوريين هذه يقع حكم يربعام الثاني ملك إسرائيل، وأن عدم وجود أي سلطة مركزية قوية قد مكنت من توسيع حدوده على حساب حماة ودمشق (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٥: ٢٨) كما كانت هناك اضطرابات في المناطق الواقعة على طول نهر دجلة جنوبي بلاد آشور في حين سببت الضائقة الاقتصادية الناشئة عن قطع الطرق التجارية إلى قيام ثورات في عدد من المدن. وفي عام ٧٤٦ ق م قامت ثورة في العاصمة كالح نفسها واغتيل آشور ـ نراري الخامس، وهو آخر الملوك الثلاثة الذين أعقبوا أدد ـ نراري الثالث، مع جميع أفراد العائلة المالكة. وقد نصبت الثورة التي قضت على العائلة المالكة القديمة على العرش الآشوري أقدر حاكم في بلاد آشور لمدة تزيد عن القرن. وإن ما هو معروف عن تاريخ

تجلاتبليزر الثالث السابق، بول Pul في العهد القديم، قليل جدا. ففي أحد النصوص يدعى بأنه سليل أدد ـ نراري الثالث وليس هناك سبب للتشكيك في ذلك. ولم يستعمل اسمه بول في العهد القديم فقط بل في بلاد بابل أيضا. وهناك من يرى بأن ذلك يمثل اسمه الشخصي وأن اسم تجلاتبليزر هو اسم ملكي أطلقه على نفسه عند اعتلائه العرش كدليل على رغبته لاتباع خطوات الملوك الفاتحين الذين حلموا هذا الاسم من قبل.

السيادة الآشورية:

عندما تولى تجلاتبليزر الثالث العرش، كانت بلاد آشور في وضع عسكري واقتصادي صعب، بل متأزم جدا. فكانت قد فقدت سيطرتها على كثير من حدودها الغربية وكانت بلاد بابل في فوضى واضطراب في حين كانت الأقاليم الجبلية إلى شرقي وشمالي بلاد آشور تحت سيطرة أورارتو بصورة عامة. وشهدت السنوات الأربعين التالية استفاقة بلاد آشور وعودة سيطرتها على جميع حدودها القديمة وتثبيت نفسها قوة عسكرية واقتصادية بارزة في الشرق الأدنى. ولم تكن هذه التغييرات الكبيرة نتيجة تغييرات جذرية في الموقف الخارجي، ففي الواقع كان الضغط في الشمال قد زاد في هذه الفترة. بل يعزى إلى درجة كبيرة إلى الإصلاحات الإدارية التي قام بها تجلاتبليزر في إعادة تنظيم نظام إدارة حكومته ومقاطعاته. فقد قلص حجم المقاطعات في بعض الأحيان في سبيل التوصل إلى إدارة حازمة وكذلك لمنع حصول حكام المقاطعات على قوة كبيرة قد تكون خطرة. وقسمت المقاطعات التي أعيد تنظيمها بدورها إلى وحدات أصغر تحت سيطرة موظفين أقل درجة كانوا بصورة عامة مسئولين أمام الحاكم ولكن كان لهم الحق في أن يشتكوا إلى الملك مباشرة ويمثلوا أمامه.

وكان ذلك ضامنا جيدا ومراقبة دائمة على كفاءة وموالاة حكام المقاطعات كما نظم أسلوب محطات البريد (الذي ينسب استخدامه لأول مرة إلى الإيرانيين بصورة عامة) على طول الإمبراطورية نساعد ذلك على سرعة المراسلات بين الملك وحكامه، كما طلب إلى الحكام أيضا أن يقدموا تقارير منتظمة عن شئون مقاطعاتهم. واتبع تجلاتبليزر وخلفاؤه بالنسبة للدول الحاجزة الواقعة ما وراء المقاطعات الآشورية أسلوب تعيين ممثل آشوري في

بلاط تلك الدول للإشراف على مصالح الآشوريين بينما أمكن السيطرة عليها بصورة غير مباشرة من خلال العائلة المالكة المحلية، وتمتعت مثل هذه الأسر المحلية الحاكمة بضمان إسناد الإمبراطورية في حالة الثورات الداخلية أو هجوم الأعداء شريطة دفعهم الجزية للمسئولين عن دفعها وقبول توجيه المقيم الآشوري في شئون السياسية الخارجية التجارية. ويمكن ملاحظة أمثلة ذلك في العهد القديم عندما استنجد آهاز ملك يهوذا مثلا تجلاتبليزر حينما هدده حلف سوريا وإسرائيل وقد حصل على النجدة المطلوبة (سفر الملوك إصحاح ١٦: ٧-٩).

وكان اهتمام تجلاتبليزر العسكري الثاني هو تثبيت حدوده الجنوبية حيث كانت القبائل الآرامية على طول نهر دجلة تثير الاضطرابات منذ السنوات الأولى من عهد آشور ـ دان الثالث (٧٧١-٧٥٤ ق م)، فهوجمت أراضي قبيلة بوقودو Puqudu (في العهد القديم Pekod) شرقي وشمالي بغداد الحالية وأعيد الاستيطان فيها وجعلت جزءا من مقاطعة أرابخا، التي أصبحت حدودها الحالية آنذاك على شكل بيضوي طويل على طول الجانب الشرقي من دجلة ومفتاحا لسيطرة الآشورين على بلاد بابل. وقد جعلت مناطق القبائل الواقعة إلى الجنوب الشرقي من ذلك بين بلاد بابل نفسها وعيلام مقاطعة مستقلة تحت الإدارة الآشورية. وقوت مثل هذه الإجراءات موقف الملك المحلي داخل بلاد بابل نفسها، وهو نابو ـ ناصر الذي لم يتدخل تجلاتبليزر في سلطته غربي نهر دجلة. وحافظ نابو ـ ناصر على الأمن الداخلي والسياسية المؤيدة للآشوريين داخل بلاد بابل حتى موته عام ٧٣٤ ق م فارتاح تجلاتبليزر من قلق الاضطرابات في الجنوب وكان بمقدوره أن يلتفت إلى أورارتو، عدو بلاد آشور الرئيس. ويمكن إعادة تثبيت الخطوط العامة للحوادث التي وقعت في السنوات التالية من حوليات تجلاتبليزر المهشمة قليلا، على حين تزودنا الرسائل التي أرسلت إلى الملك من قادته وحكامه أو ضباط استخباراته على الحدود الأورارتية ببعض التفاصيل الواضحة هنا وهناك، وأن تسلسل الأحداث في بعض الأحيان غير مؤكد بسبب صعوبة تجميع كسر الحوليات بشكل دقيق. وبدأ الضغوط المضاد على أورارتو بحملة إلى أراضي نامري نفسها، وهو إقليم يقع شمالي زاموا (محافظة السليمانية حاليا) شمالي عيلام القديمة. ولم يقابل الجيش الآشوري قوات أورارتية (مما يشير إلى أن كناءة نظام

استخبارات ومواصلات الأورارتيين كانت أقل بكثير من نظريتها الآشورية) وكان بإمكان الجيش أن يستوعب بسهولة التصدي الذي أبداه بعض القادة المحليين. وقد ترك الحكام المحليون الذين اتفقوا مع تجلاتبليزر في أماكنهم تابعين وخاضعين لدفع الجزية، في حين وضعت حدود أخرى تحت إدارة الموظفين الآشوريين المباشرة وأعيد إسكانها بقبائل من شرقي بلاد بابل. وعلى كل حال فإن الغزوة أنذرت ساردر Sardur في أورارتو الذي استمر بتنظيم حلف قوي ضد آشور في الغرب. وقد أثبتت كفاءة نظام استخبارات ومواصلات الآشوريين جدارة أكثر من الأورارتيين عما في السنة السابقة وزحف تجلاتبليزر بجيشه، الذي كان مجهزا آنذاك بالعدد والتجهيزات نتيجة الأعداد الكثيرة من الخيل والبغال والجمال والماشية التي غنمها في حملته إلى بلاد نامري والتي حصل خلالها أيضا على ما لا يقل عن خمسة عشر طنا من النحاس، ضد القوات في الغرب. ويبدو أن الجيش الآشوري قد عمل الكمائن لقوات الحلف التي واجهت هزيمة شنيعة ووقع كثير من الأسرى، استنادا إلى الحوليات ما يقرب من ثلاثة وسبعين ألف جندي، على الرغم من أن ساردر نفسه تمكن من الهرب ليلا من خيمته تاركا وراءه جميع ممتلكاته حتى مجوهراته وختمه الشخصي وهرب عبر الفرات إلى بلاده.

وسارعت تلك الدول التي لم تتورط بالحلف لدفع الجزية إلى تجلاتبليزر، وقضى تجلاتبليزر السنوات التالية في تقوية موقف الآشوريين في الغرب حيث أجريت تغييرات إدارية كبيرة وقلب عدد من الممالك التي كانت سابقا تدين بالتبعية وثبت عدم إمكانية الاعتماد عليها إلى مقاطعات آشورية تحت الحكم المباشر. وظلت هناك بعض الجيوب المضطربة المنعزلة وقد أشير في الحوليات وفي المراسلات الملكية إلى أن السنوات الثلاث التالية شهدت عددا من النشاطات العدائية ضد الآشوريين في سوريا. وكانت هذه النشاطات تتراوح بين العمليات العسكرية الصريحة وبين الشغب المحلي ضد بعض الإجراءات الاقتصادية غير الشعبية. وتمدنا رسالة أرسلت إلى تجلاتبليزر من قبل الموظف الآشوري الذي أعاد النظام في الموانئ البحرية في صور وصيدا يمثل على النوع الثاني. فقد كانت السلطات الآشورية قد فرضت ضريبة على الأخشاب التي تجلب إلى الميناء من لبنان فقام المواطنون الغاضبون ببعض الاضطرابات وقتلوا جابي الضرائب الآشورية وكان رد

فعل الحاكم العسكري الآشوري فعال حيث جلب إلى المدن المعنية فرقا من قوات الأيتو Itu، وهي قوات شرسة استخدمت لأداء
واجبات الشرطة بين السكان المدنيين المثيرين للاضطرابات وكان وجود هذه القوات كما يذكرنا الكاتب إلى جانب الملك قد وضعت الناس في حالة رعب. وبعد أن أفزع تجار الخشب ما فيه الكفاية وجههم الموظف الآشوري للاستمرار بقطع الخشب كالسابق غير أنه حظر عليهم تصديره إلى المدن المصرية والفلسطينية ولعل هذه الحادثة أشير لها في سفر أشعيا الإصحاح ٢٣: ٥ وكان كلا من ملك يهوذا عزرا وملك إسرائيل مناحيم المعاصرين متورطين في الاضطرابات في هذا الوقت. ويصف سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٥: ١٩: ٢٢ كيف أن مناحيم فرض ضريبة على رؤوس الأموال ليدفع الغرامة، وهي ألف طالن من الفضة فرضت من قبل تجلاتبليزر الثالث (بول Pul).

ويبدو أن تجلاتبيلزر الثالث قد بقى نفسه في سوريا في السنوات التالية واتخذها قاعدة له في حين كانت فرق من جيشه مشغولة في الشمال والشمال الشرقي في أعقاب النصر الآشوري على ساردر. كما هوجمت ثانية أراضي نائيري جنوب غربي بحيرة وان وشمال المقاطعة القديمة تشخان Tushkhanومنطقة القبائل في أعالي الزاب الأعلى، وخضعت هذه المرة للسياسة التي اتبعها تجلاتبليزر الثالث على نطاق واسع وهي ترحيل السكان المحليين وإعادة إسكان البلاد بالأسرى من مناطق أخرى من الإمبراطورية وقد وضع الإقليم بكامله تحت سلطة حكام آشوريين.

ويبدو أن انسحاب قسم من الجيش الآشوري قد أعطى حكام سوريا وفلسطين الثانويين فكرة خاطئة عن قوة الآشوريين. في حين خلفت الإجراءات الاقتصادية من النوع الذي يعكسه حظر تصدير الخشب إلى الجنوب من لبنان بعض الصعوبات.

وفي عام ٧٣٤ ق م كانت هناك بعض الاضطرابات في جنوب فلسطين، واستنادا إلى ما جاء في سفر الأيام الثاني الإصحاح ٢٨. ١٦: ٢١، هاجم حلف من أدوم Adom والمدن الفلسطينية يهوذا تحت حكم آهاز Ahaz بينما آقيم في شمال ذلك حلف معاد للآشوريين ضم سوريا وإسرائيل. واستنادا إلى القصة الثانية في العهد القديم (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٦: ٥-٩ وكذلك الفقرة التي اسير إليها في سفر الأيام الثاني)، حافظ آهاز على سياسة موالية للآشوريين طوال الوقت وطلب العون من تجلاتبليزر وبتقديم ذلك

تمكن الملك الآشوري بسهولة من التخلص من المعارضة في المدن الفلسطينية والسورية والتدخل في شئون إسرائيل وتنصيب هوشع بدلا من الملك بيكا .Pekahويتذمر سفر الأيام أنه كان على أحاز أن يدفع ضريبة إلى تجلاتبليزر على الرغم من موالاته، وهي إشارة تؤيد الحوليات جزءا منها، ويبدو أنه إذا كانت الأحداث في سفر الأيام موثوقة فإن الضريبة هي التي كانت تعرف عادة كيتو Kittu، وهي الضريبة التي تفرض مقابل تقديم المساعدة العسكرية إلى تابع في حالة الاضطرابات.

وفي عام ٧٣٤ ق م، حدثت اضطرابات في منطقة جديدة وذلك عند وفاة نابو ـ ناصر ملك بلاد بابل الموالي للآشوريين. فقد كانت القبائل الكلدانية قد سيطرت تماما على جميع بلاد البحر (وهي الجزء الجنوبي من بلاد بابل) لما يقرب من قرن كامل وكانت تعمل على توسيع سيطرتها تدريجيا إلى الشمال باتجاه الفرات ودجلة. وفي أثناء الارتباك الذي حدث عند وفاة نابو ـ ناصر ثار أوكن ـ زير Ukin-Zer رئيس قبيلة بيت أموكاني الكلدانية Bit-Amukkani ضد الخليفة الشرعي الموالي
للآشوريين والمدعو نابو ـ نادن ـ زير Nabu-Nadin-Zer (734-732 ق م) وتمكن أخيرا من السيطرة على العرش. وظلت القبائل غير الكلدانية القاطعة شرقي دجلة في شمال بلاد بابل موالية لآشور، كما كان كذلك المواطنون البابليون)بصورة عامة) على الرغم من أن الغاصب قد استولى على العاصمة نفسها. وهناك رسالة تحدثنا عن المفاوضات التي تمت بين الموظفين الآشوريين والسكان المحصنين في الداخل، وتذكرنا بالمقابلة التي تمت بين موظفين الرابشاقة ووزراء حزقيا عند حصار القدس عام ٧٠١ ق م (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ : ١٧ : ٣٦). وهناك بعض الدلائل تشير إلى أن الدبلوماسية الآشورية قد نجحت في بذر الخلاف بين شيوخ القبائل الكلدانية ـ وبذلك أمكن جعل جزء من وقتهم محايدة بما في ذلك قوات مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، وهو قائد طموح وقدير قاد بنفسه بعد ذلك ثورة وجاء ذكره في العهد القديم تحت اسم مردوخ ـ بلادن (أشيعا ـ الإصحاح ٤٣ : ١) وقد كشفت مخططات تجلاتبيلزر الاستراتيجية قيمتنها عند التصرف مع أوكن ـ زير. فقد وجه الهجوم من مقاطعة آرابخا وتجنب الجيش الآشوري كثافة المدن على الرقبة المشكلة بالتقاء نهر دجلة والفرات ودخل بلاد بابل عبر دجلة من نقطة تقع إلى الجنوب من ذلك. ووضعت القبائل الموالية لحماية الطرق في حين تحرك الجيش نحو الغرب إلى المدن البابلية.

وأخذت بابل من العصاة الذين هربوا إلى سابيا Sapia، وهي المدينة الرئيسة لقبيلة بيت ـ أموكاني في وسط منطقة الأهوار أسفل الفرات. وتابع الجيش الآشوري ملاحقة أوكن ـ زير وحاصره في مدينته ودمر منطقة بيت ـ أموكاني والقبائل الكلدانية المتمردة الأخرى وهي بيت ـ شيلاني Bit-Shilani وبيت ـ سآلي Bit-Sa'alli على حين تركت منطقة مردوخ ـ ابلا ـ ادينا والشيوخ أسرين الذين اتفقوا مع آشور، وقد استغرقت العملية جميعا ثلاثة سنوات، ووضعت بلاد بابل عندئذ تحت إدارة أداريين آشوريين، وفي عام ٧٢٩ ق م قام تجلاتبليزر نفسه بأخذ يدي الإله، في احتفال عيد رأس السنة الجديدة في بابل وبذلك قلد رسميا ملكا على بلاد بابل من قبل الإله القومي مردوخ، ولم يسبق لأي من الملوك الآشوريين مدة تزيد على أربعة قرون ونصف أن تولي ملك بابل. توفي تجلاتبليزر عام ٧٢٦ ق م تاركا بلاد آشور مسيطرة على إمبراطورية واسعة تمتد من الخليج العربي إلى حدود مصر وتضم أجزاء كبيرة من أناضوليا وكيليكيا.

وقد شكلت العمليات العسكرية الآشورية الممتدة جنوبا حتى غزة واضطراب التجارة المصرية نتيجة حظر الآشوريين لتصدير الخشب إلى مصر من لبنان، تهديدا لمصر وفي عهد شيلمنصر الخامس القصير خليفة تجلاتبليزر، الذي لم تصلنا عنه وثائق كثير، بدأ المصريون باتصالات دبلوماسية هجومية مضادة محاولين إفساد الممالك الصغيرة في فلسطين وجنوب سوريا. وقد تورط هوشع ملك إسرائيل في ذلك وجلب على نفسه هجوم شيلمنصر (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧ : ٣-٥). وقد أعقب الاستيلاء على العاصمة الإسرائيلية السامرة بعد حصار دام ثلاث سنوات، السياسة التقليدية بترحيل السكان (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧ : ٦ (التي نقلت خلالها قبائل إسرائيل العشرة المفتودة "والتي ظهرت حول مصيرها قصص خيالية عتيمة وذلك إلى مقاطعة كوزانو Guzanu (كوزان) ومنطقة أخرى جنوب شرقي بحيرة أورميا.

وادعى سرجون خليفة شليمنصر بأنه قام بالاستيلاء الفعلي على السامرة الذي ينسب في العهد القديم إلى شيلمنصر. ومن المحتمل أن سرجون كان القائد الذي وجه العملية نيابة عن شيلمنصر.

بداية حكم سرجون (٧٢١-٧٠٥ ق.م)

وفي بداية حكم سرجون (٧٢١-٧٠٥ ق م) حدثت اضطرابات جديدة في بلاد بابل. فقد عمل مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، شيخ قبيلة بيت ـ ياكيني، وهو دبلوماسي قدير كما يشير إلى ذلك سفر الملوك الثاني، الإصحاح العشرون فقرة ١٢ وما بعدها (الخاص بفترة لاحقة) على تقوية مركزه وجعله قويا جدا. فنصب نفسه شيخا أعلى للكلدانيين وضمن تأييد القبائل الآرامية في بلاد بابل ونظم حلفا مع عيلام، المنافسة القديمة بلاد بابل في جنوبي إيران، وبعد اعتلاء سرجون العرش مباشرة، دخل مردوخ ـ ابلا ـ أدينا بابل وادعى ملوكية البلاد وذلك بأخذ يدي بعل، في عيد رأس السنة الجديدة عام ٧٢١ق م. ويبدو أن الجيش الآشوري قد حاول أن يعيد المناورة شرقي نهر دجلة التي أمكن بواسطتها هزم أوكن ـ زير ولكن جابهه هذه المرة الجيش العيلامي في الدير. وتلى ذلك اشتباك لم يتمكن بسببه الجيش الآشوري من أن يغير إلى مركز بلاد بابل على الرغم من عدم انحداره، وكان عليه أن يعود إلى بلاد آشور. واضطر سرجون بالنظر لانشغاله في مناطق أخرى أن يترك مردوخ ـ ابلا ـ أدينا كملك لمدة عشر سنوات دون أي تفكير. وفي هذا الوقت قاسى اقتصاد المدن البابلية الكبيرة أضرارا بالغة وتدخلت الأقوام القبلية بالتجارة ومارست ابتزام الأموال من المدن بمختلف الأشكال وكانت سيطرة الكلدانيين غير شعبية في المدن البابلية الكبيرة التي ظلت حتى السنوات الأخيرة من نهاية الحكم الآشوري نفسه تستنجد دائما بالملك الآشوري لتقديم المساعدة ضد أعمال التخريب التي تمارسها القبائل الكلدانية.

وكان السبب المباشر الذي اضطر سرجون أن يترك مشاكل بلاد بابل دون حل هو الثورة التي اندلعت في سوريا. وكان ذلك ملائما جدا لمردوخ ـ ابلا ـ ادينا، غير أ،ه لا يمكن في الوقت الحاضر إثبات أنه كان وراء ذلك. كما كان في مسألة مشابهة ورد ذكرها في سفر الملوك الثاني (الإصحاح ٢٠: ١٢: ١٧). وقد تزعمت الثورة ـ حماه وهي الإمارة المستقلة الوحيدة التي ظلت في سوريا. وواجه سرجون المتمردين وهزمهم في قرقر وذلك عام ٧٢١ ق م. وكنتيجة لذلك جعل حماة مقاطعة آشورية. وفي دولة تابعة صغيرة تقع إلى الجنوب، أشار النبي ورجل السياسة أشعيا إلى الدرس الذي يمكن أن يؤخذ من هذه الأحداث معتبرا آشور الأداة ا لسابقة للإله:

ويل لآشور ـ قضيب غضبي. وبالعصا في يدهم هي سخطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة (أشعيا ـ الإصحاح العاشر: ٥-٦)

وتورطت غزة أيضا بإسناد جبان من الجنرال المصري الذي سمي العهد القديم باسم "سو" So (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧: ٤)، ولكن عند الاشتباك في رفح Raphih هرب الجنرال المصري (استنادا إلى الأخبار الآشورية) بشكل مخز تراكا ملك غزة لأسر محتوم وربما للتعذيب والموت. ولعل وجود هذه السابقة في الذهن جعل الرابشاقة يعلق سافرا على قيمة التحالف المصري:

فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه.

(سفر الملوك الثاني الإصحاح الثامن عشر: ٢١)

ولم يكن لسرجون اضطرابات أخرى في فلسطين باستثناء محاولة فاشلة من مدينة أشدد Ashdod على الساحل الجنوبي من فلسطين لتنظيم حلف مضاد للآشوريين بإسناد مصري غامض وذلك عام ٧١٢ ق م. وبالاتفاق مع يهودا وأدوم Edom وموآب ويشير سفر أشعيا (إصحاح ٢٠: ١-٦) إلى استيلاء الحاكم الآشوري على مدينة أشدد ويذكر سكان القدس بعبث توقع دعم مصري العسكري ضد آشور.

وكما كانت الحال مع تجلاتيليزر فقد كانت مشكلة سرجون الرئيسة هي الضغط من التسلل داورارتو، التي بدأ تاريخها وحضارتها يعرف بالتدريب نتيجة التقنيات التركية والروسية التي أثبتت أنها كانت من إحدى القوى الكبرى في الشرق القديم، كانت نفسها واقعة تحت ضغط قوي من القبائل الإيرانية المهاجرة التي كانت تتحرك نحو الجنوب والغرب من سهول روسيا. وكانت جماعة من هؤلاء المهاجرين قد استقرت في عهد سرجون وشكلت مملكة ذات أهمية تعرف باسم زيكرتو Zikirtu شرقي بحيرة أورميا. وكان الميديون، الذين كانوا حتى ذلك الوقت غير منظمين وعلى النظام القبلي، تحت سلطة عدد من الشيوخ شبه المستقلين يؤلفون الجزء الرئيس منهم. وقد حاول روساس الأول Ru-

733-714) sas I ق م) الابن النشط وخليفة ساردر الذي دحره تجلاتبيلزر الثالث، أن يحقق بعض النجاح في الاتفاق مع ثلاثة من الشيوخ الميديين ويضمن إسنادهم العسكري له ضد آشور، كما يجب أن يفترض، تعاونهم في المحافظة على بقاء الطرق التجارية من أقصى الشرق مفتوحة (مقابل الإعانات المعتادة في مثل هذه الحالات) التي كانت أساسية لرفاهية أورارتو. وفي حدود هذا الوقت كان الطريق الرئيس من إيران يأتي من الضفة الغربية لبحيرة أورميا شرقي بحيرة وان إلى أرضورم (حيث عثر على أدوات برونزية أورارتية من القرن الثامن) وإلى تربيزوند Trebizond على البحر الأسود، والتي كانت حسب الأخبار المتوارثة، قد أسست عام ٧٥٧ق م ومن المؤكد أن أورارتو كانت تستفيد من التجارة مع إيران وربما مع الهند. ويستدل على ذلك من رأي المتخصصين بالتكنولوجيا ومن المواد التي ذكرت عندما نهب الآشوريون بعض المدن الأورارتية عام ٧٤١ق م ويحتمل أن أورارتو كان لها علاقات تجارية مع أراضي ما وراء اليونان من خلال الوسطاء، طالما ادعى بأن هناك برونزيات أورارتية عثر عليها في القبور الأتروسكية Etruxan، ويذهب أحد العلماء أبعد من ذلك ويقترح معتمدا على الطرز الفنية بأن قوافل محملة بالحرير كانت تصل أورارتو سالكة الطريق الطويل من الصين ولعل بعض التجارة التي سلكت الطريق الشمالي عبر أرضروم وتربيزوند كانت تمر في الفترات السابقة عبر بلاد آشور إلى موانئ البحر المتوسط، ولعل الرغبة في قطع الطرق التجارية الأورارتية وتحويل هذه التجارة، وما رافق ذلك من رخاء اقتصادي إلى الطرق القديمة هو سبب من الأسباب التي دفعت سرجون للقيام بحملاته التالية إلى المنطقة.

وإلى الجنوب من بحيرة أورميا، بين بلاد آشور ومقاطعات ميديا العظيمة، تقع أراضي المانيين Mannaeans (المني في العهد القديم سفر أرميا، الإصحاح: ٥١: ٢٧)، وهم من التابعين إلى الآشوريين وبعد اعتلاء سرجون العرش بفترة قصيرة حدثت اضطرابات في القسم الشرقي من هذه المنطقة أثيرت من قبل ملك زيكرتو Zikirtu الذي كان وراءه أيضا ظل روساس وقد تمكن سرجون من قمع العصاة ولكن الاضطرابات تكررت بعد سنتين عندما قام روساس بأعمال عسكرية علنية، وكان رد فعل سرجون ثانية حازما، وبعد أن تخلص من العصاة عين أولوسونو Ullusunu ملكا على المانيين. وبعد سنتين هوجم

أولوسونو، بسبب مؤامرة داخلية وعمليات عسكرية خارجية من قبل أورارتو ومرة أخرى كان سرجون في مستوى المسئولية فقدم إلى أولوسونو كل المساعدات الممكنة وقام بحملة تأديبية على الحدود الجنوبية لأورارتو. بالإضافة إلى هذه التدخلات المتكررة من جانب أورارتو في شئون التابعين الآشوريين من الموالين لها حدثت مناوشات صغيرة على شكل مصادمات حدود، وللقضاء على المشكلة فقد وضعت الخطط للقيام بهجوم واسع على أورارتو. وبدأت تقارير الاستخبارات تنهال على الملك الآشوري من الموظفين الآشوريين والجواسيس الأجانب. وقد اقترح أحد الكتاب أن يقوم الملك بهجوم مباشر على أورارتو وبدا أنه واثق من أن العاصمة توروشبا Rurushpa ستقع بيد الآشوريين. وذكرت رسالة أخرى عصيان داخل أورارتو وتفصح الرأي بأن القبائل المعنية ستقف إلى جانب الآشوريين في حالة الهجوم. وكان الهجوم متوقعا لا محالة، حيث يقول أحد الرواة غير الموالين من أورارتو، "عندما تأتي قوات الملك الآشوري للمرة الثالثة".

وقامت قوات سرجون بالتظاهرة الرئيسة المرسومة ضد أورارتو صيف عام ٧١٤ق م وأن خطة الحملة والحوادث معروفة بشيء من التفصيل من تقرير مشهور حول الموضوع كتب على شكل رسالة إلى الإله آشور فقد أخذ سرجون جيوشه إلى مقاطعة زاموا Za-mua ومن هناك، زحف سرجون شمالا إلى منطقة تابعة إلى الوسونو الماني، التابع الموالي للآشوريين، واعتزم أن يستخدمها قاعدة ضد زكرتو Zikirtu وأورارتو. ثم قاد سرجون قواته شرقا إلى حدود زكرتو حيث فتح ودمر المدن الرئيسة المحصنة.* وقد فعل ذلك دون مقاومة حيث ذهب ميتاتي Mettati حاكم زكرتو ليلحق بالجيش الأورارتي ويدافع عن الممرات. واتجه سرجون بعد ذلك غربا ثانية وعلم أن الجيش الأورارتي الرئيس كان يدافع مع حلفائه عن ممر منخفض في الجبال. ويبدو أن قوات سرجون كانت في هذه المرحلة، كما كانت الحال في عهد الاسكندر الكبير في الهند، متعبة من مشاق الحملة في بلاد قاسية وكانت قد أوشكت على التمرد والعصيان. ونظرا لعدم تمكنه من الاعتماد على انضباط جيشه الرئيس، فقد قاد سرجون هجوما مع حرسه الخاص وقواته الخاصة على أحد أجنحة القوة المعادية وشتتها. وبهذا العمل المشجع هجم الجيش الآشوري على الحلف الأورارتي وشتت خطوطهم ونشر الرعب بينهم. وقاد الجنرال الأورارتي قواته مسرعا ولكن بانتظام

متراجعا غير أن بقية الفرق كانت حينئذ بدون قائد ومرتعبة كالغوغاء فانهزمت بدون نظام إلى الجبال حيث لقي الكثير منهم حتفهم بسبب ظروف المناخ القاسية وكان اندحار وهزيمة الجيش الأورارتي الرئيس صدمة كبيرة لمعنويات الأورارتيين فتمكن سرجون من أن يتغلغل في عمق الحدود الأورارتية مع مقاومة لا تكاد تذكر. وترك روساس عاصمته تروشبا Tu-rushpa (التي لم يخاطر سرجون بمهاجمتها كما يبدو) وأخذ طريقه إلى الجبال حيث مات أخيرا من الحزن استنادا إلى ما جاء في أخبار سرجون.

ولازم الفراش كامرأة في المخاض، ورفض أن يمس فمه طعام أو شراب وجلب على نفسه مرضا لا علاج له.

وبعد أن انهارت، كما يبدو، الإدارة المركزية في أورارتو، كان بإمكان سرجون أن يزحف شمال بحيرة وان سالبا وناهبا في طريقه دون أي مقاومة. وفي العودة من الشمال نحو بلاد آشور، لم يقدم أورزانو Urzanu، وهو حاكم موساسير Musasir إحدى دويلات المدن الأوراتية المنعزلة، اعترافه الرسمي بسيادة سرجون. وعلى الرغم من موقع المدينة البعيد وصعوبة التقدم إليها من خلال الغابات والجبال، فقد وجد سرجون من الضروري أن يجعل من مدينة موساسير مثلا رغم القدسية التي كانت تتمتع بها هذه المدينة. فسمح لقواته الرئيسة أن تستمر في طريقها إلى بلاد آشور وقاد سرجون فرقة قوامها ألفا من المشاة ضد المدينة وأصدر أمرا عاما إلى موظيفه في المنقطة الشمالية لمنع هروب أمير موساسير ويظهر سبب هذه التعليمات وضرورة إنجاز هذه الخطوة ضد موساسير واضحا من الحوادث التالية. فقد كانت المدينة مركزا مهما لعبادة الإله خالدي Haldi إله أورارتو القومي. وعندما وصل سرجون، وجد احتفالا للتويج حيث كان خالدي يقوم بتنصيب خليفة لمملكة أورارتو الشاغرة (ولعله أمير موساسير) وقد أخذ سرجون الإله نفسه وزوجته أسرى ورحل المواطنين وأخذ كنوزا كثيرة من الأحجار الكريمة والمعادن والأواني البرونزية إلى بلاد آشور.

ومع أن العاصمة الأورارتية لم تفتح ورغم قيام روساس، استنادا إلى أحد النصوص الأورارتية الذي يعطي الجانب الثاني من الصورة، بهجوم مضاد ناجح لاستعادة موساسير

(وذلك قبل استسلامه للمرض العضال الذي نسبه إليه سرجون) فقد كانت حملة سرجون فعالة حيث لم يحدث اضطرابات أخرى مثارة من قبل أورارتو خلال السنوات العشرين التالية أو يزيد باستثناء مؤامرة في إقليم تابال Tabal (في سفر حزقيال تبل Tubal الإصحاح ٣٨: ٢، ٣..الخ).

وكان سرجون آنئذ حرا ليتصرف مع بلاد بابل. فقد جعل الحكم القبلي واضطراب التجارة لمدة عشر سنوات على جعل سكان المدن الكبيرة مستعدين للتدخل الآشوري. على حين كانت الشئون الداخلية في عيلام قد شلت قوة الملك العيلامي عن القيام بأي رد فعل. واتبع سرجون الاستراتيجية المضادة بمهاجمة شرقي دجلة. فاضطر ذلك الجيش الكلداني إلى الانسحاب إلى الجنوب حيث استغلت المدن البابلية الفرصة وفتحت أبوابها للترحيب بسرجون. وأخذ سرجون يدي الإله في عيد رأس السنة الجديدة في بابل غير أنه تبنى اللقب القديم "نائب الإله"، وليس "ملك" بلاد بابل. فاكتسحت منطقة مردوخ ـ ابلا ـ ادينا وفتحت حصنه الرئيسة أما هو نفسه فأعيد تنصيبه رئيسا لقبيلة بيت ـ ياكيني بعد أن قدم الخضوع لسرجون.

وفي هذه الأثناء أشارت تقارير الاستخبارات التي وصلت سرجون أن أركيستس Ar-gistis خليفة روساس كان يخطط هجوما على بلاد آشور على الرغم من أ، الجيش الذي كان يعده قد يكون لغرض آخر. وعلى كل حال فإن الحوادث اضطرته لاستخدامه لغرض آخر. ففي عام ٧٠٧ق م دخل أورارتو من الشمال حشد كبير من القبائل البربرية تدعى كيمرايا Gimmirraya (في العهد القديم سفر حزقيال الإصحاح ٣٨: ٦... الخ كومر Gomer وفي المصادر الكلاسيكية الكمرين) ودحرت اركيستيس في محاولة لوقفهم وعبرت غربا إلى كيليكيا وعندئذ دخلت حدودا تسيطر عليها بلاد آشور. ومن المناسب أن نخلص هنا بإيجاز لمجرى الحوادث في هذه المنطقة خلال عهد سرجون

ففي السنوات الأولى من حكم سرجون بدأت مصالح مشكو Mushku (في العهد القديم ميشيخ Meshech وفي المصادر الكلاسيكية Phrygia) وهي دولة قوية في جنوب شرقي آسيا الصغرى تصطدم مع مصالح بلاد آشور. وفي عام ٧١٨ق م يبدو أن مشكو

كانت وراء تمرد كركميش (وكان من نتائج ذلك أن جلعت الأخيرة مقاطعة آشورية). وفي عام ٧١٦ق مق قام سرجون بعمليات عسكرية ضد مشكو بدعوى تجاوزها على حدود مقاطعة قو Qu وبعد نجاح سرجون ضد أورارتو وخذلانها في الشرق اتجهت أورارتو لتشكيل شبكة من الأحلاف في الغرب ونجحت بخلق أهداف مشتركة مع مشكو وإفساد تحالف التابع الرئيس لسرجون من بين امراء تابال Tabal وقد تمكن سرجون من هذا التمرد غير أن استعداد مشكو لتقديم التأييد المعنوي على الأقل إلى تابعي آشور من غير الموالين مضافا إليه ضغط أورارتو قد أثبت بأنه مازال يؤلف قوة مقلقة بالنسبة لبعض الذين يدينون بالتبعية لآشور. وفي عام ٧١٢ق م كان هناك تمرد آخر، فوضعت المناطق المعارضة تحت الإدارة الآشورية المباشرة وحصنت تابال لتكون سكينا طويلة تفصل بين مشكو وأورارتو. وفي عام ٧٠٩ق م هوجمت مشكو من قبل قو Qu ولعل ذلك بسبب السياسة الواقعية أو لان آشور قد أظهرت أن جميع الطرق التجارية من سوريا إلى آسيا الصغرى كانت بيدها، أو لعل ذلك بسبب تذمر الأولى من غزو الكمريين Gimmerian فتغيرت سياسة مشكو الخارجية فجأة إلى جانب بلاد آشور وأرسل ملكها ميتا Mita (ميداس في كتابات الكلاسيكيين) هدية وطلب عقد معاهدة صداقة مع آشور. وسر سرجون لذلك وهناك رسالة مرسلة منه إلى مبعوثه المسئول عن المحادثات، وكان علاى الأغلب ابنه سنحاريب، يطلب فيها منه أن يخبر ميتا بسروره لذلك.

وهكذا كان الوضع عندما ظهرت حشود الكمريين في الشمال الغربي بعد محاولات اركيستيس الفاشلة لإيقافها. وتشير الرسائل الإثارية أن كالح)التي كانت ما تزال مركزا إداريا مهما رغم أن سرجون كان قد نشأ في العهد الأخير من حمه عاصمة جديدة إلى الشمال من ذلك في دور ـ شروكين) قد شهدت تدميرا قويا خلال العقد الأخيرة من القرن الثمن قبل الميلاد. ويمكن أن يعتبر ذلك دليلا على هجوم الكمريين المفاجئ على واحدة أو أكثر من المدن الآشورية الكبرى على الرغم من عدم وجود أي شيء آخر يؤيد هذه النظرية. وزحف سرجون إلى تابال عام ٧٠٦ق م. والتقى بالحشود الكمرية في المعركة وقد أخذت بعض الدلائل الغامضة في إحدى الرسائل على أنها تشير إلى أن سرجون كان قد وقع في المعركة، غير أن هذا الاستنتاج قابل للمناقشة ومهما كانت أسباب وفاة سرجون فإنه ولا

شك توفي في عام ٧٠٥ق م. وتحركت في نفس الوقت الحشود البربرية بعيدا إلى داخل آسيا الصغرى.

الخليفة سرجون ابنه سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق م)

وكان لخليفة سرجون ابنه سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق م) ممارسة سابقة كإداري وجندي على الحدود الشمالية، وهناك عدد من التقارير المرسلة منه إلى أبيه تشرح بالتفصيل التطورات في تلك المنطقة. لذا فإن حقيقة عدم قيام سنحاريب باتخاذ إجراءات أخرى على الحدود الشمالية بعد توليه العرش يمكن تفسيرها بأنها لا تدل على فشل الابن في تفهم المشكلة بل إنها نتيجة لنجاح الأب في معالجتها.

واستفاد سنحاريب من الوضع الجيد الذي خلفه له سرجون فكان عمله الأول، وهو أكثر إنجازاته الخالدة، إعادت بناء المدينة القديمة نينوى واتخاذها عاصمة له والتي ظلت كذلك حتى سقوط الدولة الآشورية. واتخذت دور شروكين)خرصباد الحالية) التي كان سرجون قد خططها وبناها عاصمة له وانتقل إليها في السنوات الأخيرة من حكمه كحصن فقط بعد وفاته.

واضطرب سلام الإمبراطورية بعد سنتين وذلك نتيجة حدوث عصيان في بلاد بابل. ولأسباب غير معروفة تماما فإن سنحاريب لم يأخذ يدي بعل في بابل للدلالة على توليه الملوكية أو كنائب للإله واعتبر مردوخ ـ ابلا ـ ادينا الذي ظل مخلصا لسيده سرجون بعد أن أعيد تنصيبه عام ٧١٠ق م أن الفرصة مؤاتية لمحاولة ثانية لأخذ ملكية بلاد بابل. وكانت وراءه القبائل الكلدانية والآرامية كما أعطى الضمانات ثانية على تأييد عيلام له. وكان متحمسا لإقامة حلف واسع ضد آشور ولابد من وضع تاريخ إرسال مبعوثي مردوخ ـ ابلا ـ ادينا إلى حزقيا (أشعيا، الإصحاح ٣٩) في السنوات التي سبقت ثورة عام ٧٠٣ق م.

وفي عيد رأس السنة الجديدة لعام ٧٠٣ق م عين أحد البابليين المحليين، وربما نصب كالعوبة آشورية، ملكا على بابل. وقد تحرك مردوخ ابلا ـ ادينا ـ فورا بقواته إلى العاصمة وخلع الملك الرسمي واستمر في إعداد منطقة المدن الشمالية ضد الهجوم الآشوري الذي لابد سيتبع ذلك. وكانت قوات مردوخ ـ ابلا ـ ادينا العسكرية الرئيسة قوات عيلامية

انتخب منها مجموعة وضعها في كوثا كخط أمامي لإيقاف تقدم سنحاريب. أما القسم الرئيس فقد عسرك في كيش. وقد تفوق سنحاريب على العيلاميين وذلك بإرسال مجموعة أمامية لتقطع كيش عن كوثا في حين أخذ جيشه الرئيس كوثا عنوة ثم التقى الجيش الآشوري الرئيس وقضى على القوات المتحالفة في كيش وأصبحت مدن شمال بلاد بابل في أيدي الآشوريين ثانية. وقد استقبلت بابل سنحاريب، كما استقبلت والده من قبل، بحفاوة وكانت علاقات الصداقة متبادلة حيث اقتصر السلب على قصر مردوخ ـ ابلا ـ ادينا.

ثم تقدم الجيش الآشوري لإخضاع وإزالة تحصينات جميع منطقة الكلدانيين التي كانت آنذاك تؤلف جميع جنوب بلاد بابل وتركت المنطقة الكلدانية تحت إدارة موظفين آشوريين في حين وضعت منطقة شمال بلاد بابل تحت حكم ملك بابل المحلي، هو بيل ابني Bel ibni، أحد الأمراء الأجانب الكثيرين الذين عاشوا في البلاط الآشوري رهائن وكان قد ثقف واعد لهذا الغرض.

وفي عام ٧٠١ق م حدث تمرد في فلسطين وربما كان مردوخ ـ ابلا ـ ادينا ينوي أن يتفق ذلك وعصيانه في بابل. وقد تورط في هذا التمرد حزقيا ملك يهوذا (سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٣ وما بعده) على الرغم من نصيحة أكبر مستشاريه النبي أشعيا. وكان حزقيا في هذا الوقت أقوى الملوك الثانويين في فلسطين وكان قد بسط نفوذه على بعض المدن الفلسطينية استنادا إلى ما جاء في سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ : ٨ كما كان يسعى للتحالف مع مصر (سفر أشعيا الإصحاح ٣٠: ١-٥) وأزيح الحكام الموالون في المدن الفلسطينية وكان من بينهم بادي حاكم أكرون Ekron الذي سجن في القدس، فاجتاحت قوة آشورية قوية فلسطين ودحرت القوات المصرية في التيغة Eltekehواستولت على المدن المتمردة (باستثناء مدينة القدس) وكافأت التابعين الموالي في المدن الفلسطينية باقطاعهم مناطق كانت تابعة ليهوذا سابقا. ولعله بسبب بعض التطورات في بلاد بابل التي جعلت من الضروري عودة القوات الآشورية إلى الوطن، أن سنحاريب لم يلح في حصار القدس وسلمت مدينة حزقيا بعد أن أعلن خضوعه ودفع تعويضا باهظا.

أما في بلاد بابل، فما لبث أن انسحب الجيش الآشوري الرئيس حتى عاد مردوخ ـ ابلا ـ ادينا إلى قبيلته وبدأ تآمره بالاشتراك مع عيلام والقبائل الكلادانية والآرامية. ونظرا لعدم وجود قوات عسكرية كافية تحت سيطرة بيل ـ ابني، فلم يكن مقدروه أن يحافظ على حكم البلاد بصورة فعالة وفي عام ٧٠٠ق م كان لزاما على الجيش الآشوري أن يقوم بغزوة إلى منقطة الكلدانيين وبحملة تأديبية على الحدود العيلامية. وقد أزيح بيل ـ ابني وعين آشور ـ نادن ـ شم Ashur-Nadin-Shumالابن الأصغر لسنحاريب بدلا منه.

حكم آشور ـ نادن ـ شم في بلاد بابل لمدة ست سنوات مات مردوخ ـ ابلا ـ ادينا بعد اعتلائه العرش بفترة قصيرة، غير أن عيلام ظلت تهديدا مستمرا لهدوء بلاد البحر. وقامت باحتضان الفروع غير الموالية من قبيلة بيت ـ ياكيني. وللقضاء على هذا الخطر المزعج، قررت السلطات الآشورية أخيرا أن تقوم بهجوم بحري مباشر على المنطقة العيلامية المعنية وحيث أن سنحاريب كان قد اسكن أصحاب الحرف السوريين في نينوى، فقد أمرهم بناء أسطول من السفن أبحرت جنوبا في دجلة بإشراف ملاحين من صور وقبرص، ثم تحولت بواسطة قنال إلى نهر الفرات وجيء بها على طول نهر الفرات إلى رأس الخليج العربي ونقلت بواسطتها القوات وأخذت إلى الساحل العيلامي وأمكن ضمان رأس جسر على الرغم من كثافة الكلدانيين والعيلاميين المنتظرين. ومن هناك قامت القوات بهجوم ودمرت ونهبت المدن العيلامية في الأطراف وأسرت ما تبقى من قبيلة بيت ـ ياكيني المشاكسة.

غير أن ادعاء سنحاريب في حولياته بأنه قد صب الرعب على بلاد عيلام الواسعة في غزوته لا تؤيده الأحداث حيث كان رد فعل عيلام قويا فبينما كانت قوات سنحاريب في الجنوب، قامت عيلام بهجوم على وسط بلاد بابل عبر دجلة حيث أسر الملك البابلي آشور ـ نادن ـ شم في مدينة سبار ونصب بدلا عنه أحد البابليين المدعو نركال ـ أوشيزب Ner-gal-Ushezib على بلاد بابل. وفي منتصف عام ٦٩٣ق م عادت القوات الآشورية بحذر من الجنوب واصطدمت بنركال ـ أوشيزب في مدينة تيبور ودحرته غير أنه ليس هناك ذكر في الحوليات لأية محاولة ضد مدينة بابل حيث قام مشيزوب ـ مردوخ Mushezib-

Marduk من رؤساء الكلدانيين الآخرين بتنصيب نفسه ملكا على بلاد بابل بمساعدة الآراميين. وكانت القوات الآشورية دون شك بحاجة إلى العودة إلى القاعدة التجهيز وذلك بعد أكثر من فصلين من السنة عسكرت فيهما في "بلاد البحر"، ولم يشن اي هجوم مباشر على مدينة بابل. وبدلا من ذلك واعترافا بأن عيلام كانت تؤلف العامل الفعال في السياسة البابلية، فقد اتخذ سنحاريب الخطوات اللازمة لتحديد هذا الخطر. وفي عام ٦٩٢ق م قام هجوم آشوري ضد عيلام من منطقة الدير، التي ألحق بها حينئذ بعض الحدود العيلامية المفتوحة. وقد حالت الظروف المناخية دون محاولة التغلغل إلى بلاد عيلام نفسها. وفي بابل أعلن ميشزوب ـ مردوخ مقاومته ورفض الاعتراف بسلطة الحاكم الآشوري وأثار تمردا تمكنت السلطات الآشورية المحلية من القضاء عليه. وهرب غلى عيلام ثم عاد بجيش وأعلن نفسه ملكا على بابل واتبع سياسة مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، فارسل رشوة كبيرة إلى عيلام من كنوز المعابد طالبا المساعدة العسكرية. وكانت المساعدات آتية. فقد حشد الملك العيلامي جيشا كبيرا في بلاده ومن التابعين غير الموالين الذين كانوا موالين لآشور سابقا. واجتمعت القوات مع الجيش الكلداني. وزحفت نحو الشمال غلى مقاطعة أرابخا حيث التقت بالجيش الآشوري في خالولي Halule على نهر ديالي. وتزودنا حوليات سنحاريب صورة مجسمة للمذبحة التي تلت ذلك. فكانت الخيل الأشورية تخوض بالدماء وتكدست في السهل أشلاء الجثث المذبوحة التي قطعت إلى قطع رغبة في الحصول على المحابس والاساور أو لمجرد التعطش لسفك الدماء. والخيل الخائفة تسحل عربات الموتى، بهذا الأسلوب تصف الحوليات المذبحة.

ومع أن الجيش الآشوري قد ادعى الانتصار، فقد تكبد خسائر كبيرة إلى درجة لم يتمكن معها الاستفادة من ذلك الانتصار خلال السنة التالية. وفي عام ٦٨٩ق م حدثت تغيرات داخلية في عيلام شغلت العائلة المالكة تماما. فكان بإمكان الآشوريين بعد أن عوضوا خسائرهم في معركة خالولي أن يتوجهوا إلى مشيزب ـ مردوخ. فانسحب القوات الكلدانية إلى بابل حيث قاومت الحصار لمدة تسعة أشهر وأخيرا استسلمت للمجاعة والوباء. ودخل الجيش الآشوري المدينة وخلافا للسياسة القديمة، نهبت وسلبت المدينة وأخذ الإله مردوخ، أي تمثاله، أسيرا إلى آشور وأعلن سنحاريب نفسه ملكا على بلاد

سومر واكد (أي على جنوب وشمال بلاد بابل). ولم تحدث اضطرابات أخرى في بلاد بابل لمدة ثمانية سنوات.

ولم يكن لسنحاريب مشاكل مع اورارتو على طول الحدود الشمالية نتيجة لنشاطات والده ولممارسته الشخصية الفعلية في المنطقة وللضربة التي تلقتها أورارتو من الكمريين. وربما كانت الاضطرابات التي حدثت في غقليم قو Qu في الشمال الغربي عام ٦٩٦ق م نتيجة وجود بعض الجيوب الكمرية الباقية بعد أن دحر سرجون حشودهم الرئيسة. أما بالنسبة للحدود الشرقية فقد قام سنحاريب بعد أن جهز حملة ضد مردوخ ـ ابلا ـ ادينا عام ٧٠٣ ق م، بإلحاق عدد من المناطق التي كانت مستقلة أو أنها كانت تدين بالتبعية بالبلاد وقام بتحصين بعض المدن في المنطقة ضد الهجوم العيلامي.

وقد اشتهر سنحاريب في الشئون الداخلية بنشاطاته العمرانية واهتمامه ببعض المشاكل الفنية. فهو الذي أعاد بناء نينوى وفتح فيها شوارع جديدة ووسع الساحات وحول مجاري المياه وشيد سدادا حجرية ضخمة لحماية قصره من الفيضان. وأقام حول القصر حديقة واسعة شبيهة "بجبل الأمانوس" حيث زرع فيها جميع أنواع النباتات وأشجار الفواكه كالتي تنمو في الجبال وفي بلاد الكلدانيين. وخلف هذه الحدائق النباتية تقع البساتين. ولإرواء هذه الأرض الخضراء حفرا قنالا طوله ستة أميال ثم وسع سنحاريب بعد ذلك حدائق النباتات وضم إليها جميع نباتات بلاد سوريا ونباتات المر التي كانت أضخم مما في بيئتها المحلية وجميع أنواع الكروم الجبلية، ثم وسع مشروع تجهيز المياه فأقام مستنقعا اصطناعيا واسعا بواسطة السداد وملأه بالطيور المائية والخنازير البرية والأيل لتكون حيواناته مشابهة للحيوانات والنباتات الطبيعية في جنوب بلاد بابل. وما تزال هناك أجزاء كبيرة من بقايا أحد أعمال سنحاريب الهندسية وهي قناة لحمل المياه من حوض واد. وكان طول هذه القناة أكثر من ثلاثمائة ياردة وعرضها أربع وعشرون ياردة وتحتوي على نصف ميلون طن من الصخر حول وصف القناة بالتفصيل ويصف سنحاريب أعماله في نصوص القناة قائلا (لقد حفرت قنالا إلى مروج نينوى وأقمت جسرا من الصخر عبر الوادي العميق وتركت تلك المياه تعبر فوقه). وهناك مشروع آخر معروف لتجهيز مدينة أربائيلو (أربيل) بالمياه أقامه سنحاريب. ويظهر اهتمام سنحاريب بالقضايا الفنية بادعائه أنه ابتدع

أسلوبا فنيا جديدا لصب البرونز "أنا سنحاريب، بالذكاء الحاد الذي منحني إياه الإله أيا وبتجاربي الخاصة تمكنت من صب الأسود البرونزية الضخمة ذات الأرجل المفتوحة عند الركب والتي لم يسبق للملك قبلي أن قام بها.... وبنيت قالبا ضخما من الطين لاثني عشر أسدا ضخما مع اثني عشر ثورا ضخما فوق دعامات ضخمة. وجذوع النخيل... وصببت البرونز فيها كما تصب قطع نصف الشاقل". والغشارة هنا إلى عملية... للأشياء الضخمة جدا. وكانت العملية نفسها مستخدمة منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

وفي عام ٦٨١ق م لقي سنحاريب حتفه بأسلوب كان شائعا بين الملوك الشرقيين، حيث اغتيل في بابل من قبل أولاده واستنادا إلى ما جاء في العهد القديم (سفر الملوك الثاني، الإصحاح ١٦: ٣٦-٣٧) فقد حدث ذلك بعد عودته من حملة أخرى إلى فلسطين بفترة قصيرة غير أنه ليس هناك أي تثبيت لمثل هذه الحملة في المصادر الآشورية. وكان أسرحدون الوريث الشرعي الذي كان سنحاريب قد رشحه ووافقت عليه الآلهة رسميا وقبله نبلاء آشور. وكان لهذا الأمير خبرة طويلة عند وفاة أبيه حيث كان ينحاريب قد عهد إليه السلطة العليا في بلاد بابل بعد فتح بابل عام ٦٨٩ق م وقد أهلته هذه الخبرة لأن يكون بديلا جيدا ولم يتأخر أسرحدون سوى الفترة اللازمة للتأكد من تأييد الآلهة له فتحرك بخفة من الاتجاه الغربي ضد قتلة أبيه دون الانتظار للمرور بالأسلوب الاعتيادي في إعداد وتجهيز جيشه لحملة طويلة ويتفق الاتجاه الذي سلكه أسرحدون مع ما جاء في العهد القديم حول الفعاليات العسكرية الآشورية في الغرب قبل وفاة سنحاريب بفترة قصيرة (ولو أنه لا يثبتها). وقد استعد الجيش الآشوري الرئيس لمقاومة اسرحدون في منطقة نصيبين ولكن عند تقدم أسرحدون حدث شقاق بين قواته وأعلن قسم منهم انضمامه لأسرحدون بعد أن علموا بمعجزة للآلهة عشتار إلى جانب هذا الأمير. وقد هرب القتلة إلى أرمينيا (أورارتو) وحصل أسرحدون على قبول جميع سكان آشور بعد أن أيدته جميع قوات الجيش. وبعد أن ثبت أسرحدون نسفه قام بتطير الجيش ولقي المتورطون في التمرد نهايتهم الاعتادية.

وأعطت فترة عدم الاستقرار التي تلت اعتلاء العرش الفرصة إلى رئيس قبيلة بيت ـ ياكني في بلاد بابل لأن يفرض استقلاله بهجوم على الحاكم الآشوري وحاصره في المدينة التي كان يدير فيها جنوب بلاد بابل. وما أن استقرت الأمور في بلاد آشور حتى أصدر

أسرحـدون أوامره بالهجـوم على المتمردين في المـقاطعات الآشـورية شرقي دجلة. وهرب زعيم المتمـردين إلى عيلام حليفة بيت ـ ياكيني القـديمة غير أنه وجد بأن تغيرا فـي السياسة الخارجيـة قد رافق تغير الملك الحاكم في تلك البـلاد فقتل الزعيم الهارب فـورا في عيلام، وقدم أخـو الزعيم السابق الخضـوع والولاء لأسرحدون فعـين أميرا تابعا على جـميع بلاد البحر. وبعد سنتين، عين أمير آخـر تابعا ومواليا للآشوريين بدلا من الرئيس الكلداني المهم الآخر أمير قبيلة بيت ـ دكوري التي كانت تحتل منطقة على الفرات حتى بورسيا وكانت قد تجاوزت على المناطق التابعة لسكان بورسيا وبابل.

وفي هذه الأثناء واجهة أسرحدون مشاكل في الغرب والشمال الغربي. فقد كانت تجاه معظم مناطق أورارتو أقوام من أجناس جديدة. وكانت هذه الأقوام الجديدة هم السكيثيون المعروفـون في المصادر المسمـارية باسم اشكوزايا Ashguzayaوفي العهـد القديم (سـفر أرمـيا الإصـحـاح ٥١: ٢٧) باسم اشكيناز Ashkenaz. (والأخـير يمثل الحـروف العبـرية Sknz وهو خطأ مطبـعي قـديم للحـروف SKNZ التي يجب أن تلفظ Ashkuz) وهناك بعض الأدلة تشيـر إلى أن أسرحدون قـد أقام زواجا سـياسيـا مع أحد الأمراء السكيـثيين. وربما عادت بالظهـور بعض الجمـاعات الكمرية في مـنطقة تابال Tabal ومقاطعـة هلاكو Hillakkuبتـأثير ضـغط هؤلاء السكيـثيين. وفي عام ٦٧٩ق.م قـام الحكام الآشـوريون بعمليات ناجحة ضدهم غير أن ضـغوطهم زادت وفي عام ٦٧٣ق ز كانوا يهددون مقاطعة شبريا Shupria وفي نهاية حكم أسرحدون فقدت مقاطعتي هيلاكو وتابال بالتأكيد.

الاضطرابات والتحالفات

وكانت الاضطرابات فـي الغرب مركـزة في مدينة صيـدا التي ثار ملكها بالتـحالف مع ساندواري Sanduarri حاكم عدد من المدن على خليج أنطاكية.. وقد أسر أسرحدون كلا الملكين وقـتلهمـا وسلب صيـدا وانشأ في مكـان جديد بالقـرب من الموقع حصنا آشـوريا ولكي يكون ذلك درسـا ماديا لمن يتوقع تمردهم فـقد افتـتح الحصن رسـميا بحـضور اثنين وعـشرين ملـكا من ملوك البلدان الغـربية. ولـكي يضمن السـلام من جـهـة الصحـراء في المقاطعات الغربية حيث كان ملك العرب قد توفي آنذاك وربما يهدف إقامة علاقات صداقة

مع القبائل في صحراء سيناء على الطريق إلى مصر فقد قام أسرحدون في السنة التالية بإرسال قوة لتثبيت تنصيب المرشح الآشوري على العرش مقابل تقديم ضريبة كبيرة. أما في بلاد بابل، فقد كان من نتائج معرفة أسرحدون الشخصية بالوضع وسياسة الترضية التي اتبعها أن أصبح الوضع مناسبا لآشور. وربما كان قد بوشر بإعادة بناء بابل بعد أن دمرت من قبل سنحاريب وذلك منذ نهاية عهد سنحاريب وقام أسرحدون بأعمال ترميم كبيرة أخرى. ويوضح أحد النصوص الذي يصف الترميم كيف يمكن الالتفاف على الأوامر المقدسة فعندما دمر سنحاريب بابل كتب عليها الإله مردوخ، وطبعا كان ذلك من خلال أحد الكهنة بعد طقوس دينية معينة، بأنها ستبقى "سبعين سنة" كقياس لفترة هجر المدن ويزعم النص أن الإله، بعد أن تغلب على غضبه، قلب الرقيم راسا على عقب وأمر بترميم المدينة في السنة الحادية عشرة. والمعنى واضح جدا بالنسبة للنظام الستيني البابلي حيث كانت العلامة I

(بالمسمارية) تمثل الرقم واحد وستين. لذا كان ما يقابل الرقم IX يعني)سبعون) وإذا ما قلبت الكتابة وأصبحت XI قرأت أحد عشر.

وقد ساهمت الإدارة الكفوءة في بلاد بابل في رفاهية المواطنين وأعيدت أملاك المبعدين بعد الاضطراب الذي حل في عهد الكلدانيين فيما إذا تمكنوا من إثبات ادعاءاتهم. وكان الموقف الآشوري في بابل مضمونا إلى درجة أنه كان بالإمكان استخدامها قاعدة عسكرية لحملة بعيدة إلى نهاية صحراء الملح في إيران عام ٦٧٦ق م. حيث أمكن جعل عدد من الملوك المحليين تابعين لآشور ولم تلق الغزوة العيلامية على مركز بلاد بابل في السنة التالية أي صدى للقيام بالتمرد وكانت أهميتها مؤقتة.

وفي الشمال الشرقي يبدو أن النفوذ الآشوري على المانيين Mannaeansجنوب بحيرة أورميا كان قد ضعف نتيجة تغلغل السكيثين والعناصر الكمرية في المنطقة ومن المؤكد أن عددا معينا من القلاع الآشورية كانت قد فقدت. وأن فقدان مصدر تجهيز الخيل من هذه المنقطة التي اعتمد عليها الجيش الآشوري بشكل كبير قد يفسر أسباب توغل الآشوريين في منطقة لم يسبق لهم التوغل فيها في إيران كما يفسر تزايد الاهتمام بميديا حيث قدم

أسرحدون المساعدات لعدد من الشيوخ هناك ضد حركات التمرد. وقد تم العثور مؤخرا على كسر لأكبر رقيم طيني مكتشف حتى الآن (قياسه ١٢ انج _ ١٨ انج) نشر مؤخرا يذكر سلسلة من المعاهدات (الخاصة بالأمراء الميديين فقط في النص المعروف في الوقت الحاضر ولكن من المحتمل أنها عقدت مع جميع أمراء الإمبراطورية التابعين) هو لتنظيم ولاية العهد بعد أسرحدون. ولعل ذكرى أحداث اعتلاء العرض قد دفعت أسرحدون لاتخاذه هذا الإجراء.

كان لأسرحدون ستة أبناء، توفي الابن البكر منهم في سن مبكرة، ويبدو أن اثنين من بين الأبناء الباقين كان لهما الحق بولاية العهد وهما شمش ـ شم ـ أوكن واشور ـ بان ـ ابلي (آشور بانيبال) وليس واضحا من منهما كان الأكبر كما لا يمكن الجزم بأنهما لم يكونا توأمين. وفي عام ٦٧٢ق م أعلن أسرحدون في اجتماع كبير في نينوى بعد أن كان قد حصل على موافقة الآلهة وموافقة مجلس العائلة، عن تعيينه آشور نانيبال وليا للعهد على بلاد آشور وشمش ـ شم ـ أوكن وليا للعهد على بلاد بابل. وطلب إلى حكام المقاطعات والحكام التابعين أن يقسموا اليمين بالاعتراف بهذا الترتيب. وصدق الاعتراف بالنسبة للتابعين على الأقل، بمعاهدة تذكرهم بأنه:

"عندما يموت أسرحدون، ملك بلاد آشور، تجلسون آشور نانيبال ولي العهد على العرش الملكي. وسيمارس الملكية والسيادة عليكم. وستقدمون له الحماية في الريف والمدينة وتقاتلون من أجله حتى الموت.. ولا تكونوا أعداء له ولا تنصبوا أيا من إخوته الأكبر أو الأصغر مكانه.... وإذا مات أسرحدون، ملك بلاد آشور، وأولاده قاصرون، فساعدوا آشور بانيبال، ولي العهد، على أخذ العرش وساعدوا في تنصيب أخاه السماو له شمش ـ شم ـ أوكن، ولي العهد على بلاد بابل، على عرش بابل."

وقد أعلنت تفاصيل ولاية العهد في فترة هدوء قصيرة في الإمبراطورية قبل أن يباشر أسرحدون بسياسة جديدة ذات تطويرات بعيدة المدى في سياسة الإمبراطورية. ففي عام ٦٧٥ق م دفع تارقو Tarqu من السلالة الأثيوبية الذي كان يحكم في مصر (ترهاقة، ملك أثيوبيا في سفر الملوك الثاني الإصحاح: ١٩: ٩) ملك صور إلى مؤامرة ضد بلاد آشور

وعبر أسرحدون الحدود المصرية بعد أن قرر ضرب الاضطرابات على الرغم من أن تقدمه قد أوقف بسبب العواصف الرملية. وفي عام ٦٧١ق م بدأ الغزو المنظم لمصر وهزم جيش تارقو في المعركة وحوصرت مدينة منفيس وفتحت وهرب تارقو نفسه إلى طيبة أو مكان آخر إلى الجنوب من ذلك. فسارع أمراء مصر السفلى بما فيهم أبرزهم نيخو في سايس للاعتراف بسلطان أسرحدون. وعين الموظفون الآشوريون الممثلون لمصالح أسرحدون في مناطق حكم الحكام المحليين وأعلن اسرحدون نفسه ملكا على مصر العليا والسفلى وأثيوبيا، وهو ادعاء تجاوز الحقيقة. وقد تكررت هذه الأكذوبة في منحوتة وضعت في سنجلرلي اثناء عودة اسرحدون إلى بلاد آشور، وتمثل هذه المنحوتة الفاتح الآشوري ماسكا بيده حبلا اخترق شفاه شخصين راكعين أحدهما يمثل ملك صور في حين يظهر الآخر بوضوح بأنه زنجي ويمثل تارقو وفي الواقع أن تارقو كان لا يزال حرا وفي موقف مكنه من ممارسة تأثير كبير. فما أن ابتعد الجيش الآشوري الرئيس إلا وعاد تارقو واقنع بعض أمراء مصر السفلى لرفض السيادة الجديدة واستعاد منفس. فقام اسرحدون عام ٦٦٩ق م بالزحف نحو مصر لمعالجة الموقف غير أنه توفي في الطريق.

وعند وفاة أسرحدون، طبقت الخطط الدقيقة التي رسمت لولاية العهد بهدوء واعتلى كل من الأخوين عرشهما. ولم تكن هناك ثمة دلائل تشير بأن نهاية حكم آشوربانيبال سيشهد دخول الإمبراطورية في كارثة. حيث كانت الإمبراطورية آنذاك في أوسع حدودها الجغرافية، ومع ذلك فهناك بعض العوامل المعينة في هذه الفترة يمكن أن تفسر الانهيار الفجائي. ويأتي في المقدمة من حيث الأهمية، الموقف على طول الحدود الشرقية. فقد انهار هنا الأمن والنظام الذي ثبته تجلاتبليزر الثالث وسرجون الثاني وحافظ عليه سنحاريب إلى درجة كبيرة. وبسبب حشود الكمريين والسكيثيين البربرية التي كانت تطوف في آسيا الصغرى ومناطق أورارتو، فلابد أن التجارة مع الأقاليم الشمالية قد وصلت إلى حد التوقف، وانقطع أحد مصادر الحديد الرئيسة. كما أن القبائل الميدية القوية عدديا التي وصفت بصورة عامة في حوليات تجلاتبليزر الثالث وسرجون الثاني بـ: "الميديين الأقوياء" أو "الميديين المنتشرين" اعترافا بانتشارهم في مناطق جغرافية واسعة. كانت قد استقرت آنئذ واتحدت في وحدات قوية إلى أن أصبحت في النهاية مملكة قادرة على مواجهة قوة

الآشوريين العسكرية مواجهة الند للند. وأن اتحادها لابد وأن انتزع من آشور أحد المصادر المهمة الأخرى للمعادن والخيل وقطع الطرق التجارية التي كانت تجلب التوابل والأحجار الكريمة من الهند. أما بلاد بابل فمع أنها كانت قد هدأت آنذاك تحت إدارة اعتمدت نظام دويلات المدن القديم في الشمال، فقد حوت على عناصر جديدة قوية هي القبائل الكلدانية. وقد سيطرت هذه القبائل سواء بصورة مستقلة أو تحت النفوذ الآشوري، على معظم جنوبي بلاد بابل إضافة إلى أجزاء مهمة في الشمال وكانت قد تعلمت خلال أحداث التمردات المتكررة منذ عهد أوكن ـ زير معظم فنون الحرب من الآشوريين وفنون السلم من البابليين المحليين.

آشوربانيبال وبداية حكمه

وكان على آشور بانيبال في بداية حكمه أن ينفذ الترتيبات التي وضعت للهجوم المخطط على تارقو غير أنه كان من نتيجة انشغال آشور بانيبال بأمور أخرى، كإقرار المعاهدة التي خضع بموجبها ملك صور له وتنصيب شمش ـ شم ـ أوكن ملكا على بلاد بابل وكذلك قيامه بحملة سريعة على منطقة الكاشيين، أن بقي تارقو يحكم في مصر لمدة ثلاث سنوات بأمان. وفي عام ٦٦٧ق م، زحف جيش آشوري قوي يشمل فرقا من سوريا وفنيقيا وفلسطين وقبرص إلى مصر. وهزم تارقو وانسحب إلى طيبة ووقعت منفس ثانية بأيدي الآشوريين. وحدثت محاولة تمرد موالية لتارقو من قبل الأمراء المحليين بقيادة نيخو غير أن القوات الآشورية أوقفت قادة التمرد وقضت على المؤامرة. ونظرا لضرورة الاعتماد على بعض الأمراء المحليين المقبولين لإدارة قطر كمصر بنظام بيروقراطي مهيب وقدير، فقد استغل الامراء المأسورون بحكمة فبعد أن أخذوا إلى نينوى وحملوا بالهدايا والإحسان، ولابد أنهم ربطوا بعلاقات تحالف ايضا، أعيدو إلى مناصبهم.

وقامت السلالة الجنوبية بمحاولة أخرى لاستعادة مصر السفلى وذلك عند وفاة تارقو عام ٦٦٤ق م. فقد زحف ابن أخيه تانواتاموم Tanuatamum باتجاه النيل حتى منفيس حيث صد هجوم أمراء الدلتا الموالين لآشور الذين جاءوا لمقاومته. وكانت استجابة آشور بانيبال لذلك فورية، فدخل الجيش الآشوري مصر ثانية وذلك عام ٦٦٣ق م وقدم أمراء

الدلتا الموالون الخضوع على حين سارع تانواتاموم، كما فعل عمه من قبل، إلى الهرب وتقدم الجيش الإمبراطوري نحو الجنوب حتى وصل هذه المرة إلى العاصمة القديمة طيبة التي أخذت ونهبت. وقد تركت هذه الحادثة اثرا قويا في أقاليم البحر المتوسط وأشار النبي ناحوم بعد نصف قرن إلى مصير المدينة تحت الاسم العبري للمدينة نو امون Nu-Amon:

"هل أنت أفضل من نو آمون الجالسة بين الأنهار حولها المياه التي هي حصن البحر ومن البحر سورها. كوش قوتها مع مصر وليست نهاية. فوطء ولوبيم كانوا معونتك هي أيضا قد مضت إلى المنفى بالسبي وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة وعلى اشرافها القوا قرعة وجميع عظمائها تقييدوا بالقيود.

(سفر ناحوم، الإصحاح الثالث: ٨-١٠)

وأثناء فترة فتح مصر هذه يبدو أن آشور كانت تقوم بعمليات عسكرية صغيرة في الشمال الغربي. فالكمريون الذين صرفهم سرجون عن سوريا كانوا أنفسهم تحت ضغوط كلا من السكيثين من الشرق والغزاة الهندو ـ أوربيين من ثريس Thrace وكانوا قد غزوا منطقة مشكو (أي Phrygia) وبدأوا يضغطون على مملكة ليديا. وربما سارع حكام تابال Tabal وهيلاكو Hillakku الذين لم تعد مناطقهم مقاطعات آشورية في عهد أسرحدون لوضع أنفسهم تحت حماية آشور بانيبال نتيجة للضغوط المتجددة نفسها. وأرسل كاجس Gyges ملك ليديا السفراء إلى آشور بانيبال، تنفيذا لنصيحة إلهه الذي جاءه في الحلم طالبا الصداقة والمساعدة العسكرية ضد الكمريين. ويبدو أن ذلك كان وشيكا، حيث تمكن كاجس من إنزال الهزيمة بالكمريين وأرسل بعد الحملة بعض الغنائم إلى نينوى (حوالي عام ٦٦٣ق م). ومع ذلك فإن مصالح كل من ليديا ومصر التجارية المتشابهة، وكلاهما من القوى البحرية على البحر المتوسط، قد دفعت كاجس إلى إسناد بسماتيك Psammeti-chus ابن نيخو طرده للحاميات الآشورية في الخمسينات من القرن السابع قبل الميلاد. ونتيجة لذلك، لم يعد الدعم الآشوري لكاجس قادما إلى آسيا الصغرى. وفي عام ٦٥٢ق م (أو قبل ذلك بقليل كما يرى البعض) وقع كاجس تحت هجوم كمري جديد غير أن محاولتهم غزو شمال سوريا صدت من قبل القوات الآشورية في منطقة كيليكيا.

وقد شهد عام سلب مدينة طيبة (٦٦٣ق م) وفاة نيخو، فعين الآشوريون بدلا عنه كأمير على سايس ابنه بسماتيك وتمكن بسماتيك بالتدريج من أن يحصل، وبدون شك نتيجة لمعاونة آشور، على مركز ارتفع إلى حد السيادة على أمراء الدلتا الآخرين خلافا، كما يذكر هيرودوتس، للاتفاقية القديمة. واستنادا إلى هيرودتوتس فقد ظهرت معجزة تنبئ بوقوع الانتقام على بسماتيك على شكل رجال من البرونز يخرجون من البحر. ويفسر هيرودوتس ذلك بأنه إشارة إلى قراصنة من بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ينزلون على شواطئ مصر ويصف كيف أن بسماتيك أقام علاقة صداقة مع الغزاة من أجل غاياته الخاصة. وفي الحقيقة فإن رجال البرونز كانوا من المرتزقة من الأراضي الساحلية على طول ساحل البحر المتوسط الشمالي ولاسيما من ليديا. وتمكن بسماتيك بمساعدتهم من طرد الحاميات العسكرية الآشورية في مصر بين عامي ٦٥٨ و ٦٥١ق م).

ونظرا للنفور الآشوري من تسجيل الهزائم التي لم ينتقم لها، فليس غريبا أن لا تذكر حوليات آشور بانيبال تفاصيل الانسحاب الاضطراري من مصر. ومن المؤكد أن آشور لم تتمكن من القيام برد فعل فوري كان متوقعا في العادة بسبب الأحداث في بلاد بابل.

وظهر التوتر ثانية في بلاد بابل وكان قد هدأ في عهد أسرحدون وذلك تحت حكم شمش ـ شم ـ أوكن. وبالعكس فقد زاد التوتر نتيجة الإجراءات التي اتخذها أسرحدون للتقليل منه. فقد كانت بلاد بابل تحت ملكية شمشم ـ شم ـ أوكن غير أن معظم الحكام الآشوريين كانوا مسئولين أمام أخيه آشور بانيبال، ملك بلاد آشور وتزودنا المراسلات الملكية بكثير من الأمثلة على حقيقة أن الحكام الآشوريين وغيرهم من الموظفين كانوا يرفضون الأوامر إلا ما جاء منها من خلال التسلسل الصحيح وأنها كانت في النهاية صادرة عن ملك بلاد آشور. لذا فهناك تقرير من عهد أسرحدون أن هناك شخصا معينا في بابل قد قبض على عدد من الهاربين ويرفض تسليمهم بدون حضور ممثل الملك الشخصي أو رسالة تحمل الختم الملكي. وقد أعطت وجهة النظر هذه فرصا كثيرة للخلاف في الحالات التي لا يعترف فيها الموظف الآشوري، الذي لم يستلم التعليمات من آشور بانيبال، أو أنه يعمل على عدم إطاعة الأوامر التي يصدرها شمش ـ شم ـ أوكن. وهناك رسالة يذكر فيها شمش ـ شم ـ أوكن غلى أخيه أنه اضطر إلى إبطال أوامره الخاصة. ومع

ذلك، فقد عملت الازدواجية لمدة اثني عشر سنة على الأقل تمكن من خلالها آشور بانيبال من أن يقضي على العدو المتوقع الرئيس والحقيقي لبلاد بابل وهو عيلام. وكانت مملكة عيلام القديمة آنذاك تنهار بسرعة تحت ضغط الأقوام الإيرانية الوافدة حديثا فالأقوام التي عرفت فيما بعد بالفرس كانت قد استقرت في الشمال الشرقي من المملكة وكانت مستقلة فعليا، بينما اعتبر بعض حكام المقاطعات الشرقية أنفسهم مستقلين استقلالا ذاتيا. وكانت الملكية مضطربة وخاضعة للتغير الفجائي كما كانت عليه بلاد بابل منذ عام ٧٣٤ق م. ولكن ليس واضحا أكان ذلك من الأعراض أم من الأسباب التي عملت على الانهيار.

وبعد مناوشات طفيفة، اندلعت الحرب بين عيلام وآشور. واجتاح الآشوريون البلاد عام ٦٥٥ق م وأخذوا العاصمتين التوأمين مداكتو Madaktu وسوا Susa ونصبوا أحد الموالين للآشوريين من العائلة المالكة ملكا. وبدأ حكام آشور بانيبال وجواسيسه يبعثون إليه بالتقارير الخطرة بأن شمش ـ شم ـ أوكن كان يتآمر ضد بلاد آشور. وكان هذا التغير في وجهة النظر ذا علاقة بالتغيير في عيلام، فاطالما كان ذلك البلد تهديدا للأمن البابلي، فقد كان هناك وحدة طاغية في المصالح بين إدارة آشور بانيبال وشمش ـ شم ـ أوكن. ويبدو أن هذا العامل قد اختفى آنذاك. إضافة إلى ذلك، يبدو أن آشور بانيبال قد ارتكب خطأ في اختياره الأمير للتعيين على العرش العيلامي. وقد كتب شمش ـ شم ـ أوكن إلى أخيه حول هذا الأمر قائلا: "أتحدث عن نفسي فإني أخاف من أمانيكاش Ummanigash ولي العهد.. أنه خطر". وقد ثبت أن تقويم شمش ـ شم ـ أوكن للرجل كان صحيحا، فقد اتبع سياسة التحالف القديمة مع القبائل الكلدانية، وحيث أن الأقوام القبلية كان لها في هذا الوقت تأييد كبير في بورسبا وبابل، فقد انجر شمش ـ شم ـ أوكن نفسه على المؤامرة. ورحب بالتحالف بسماتيك في مصر الذي كان مشغولا بطرد الحاميات الآشورية من بلاده. كما انضم العرب في الصحراء للحلف. وقد بدأ الصدام الفعلي عام ٦٥٢ق م عندما قام الجيش العيلام بالتحرك ضد شمالي بلاد بابل في حين هاجم شمشم ـ شم ـ أوكن المدن الآشورية الكبيرة التي تحميها الحاميات الآشورية وهزم الجيش العيلامي وحدثت ثورة داخلية جاءت بتغيير آخر للملك وشلت القوة العيلامية لمدة سنة خلال فترة إعادة النظام. وأخذ الآشوريون المبادرة وطهروا جنوب بلاد بابل من القوات الكلدانية

المنظمة ووضعوا بورسبا وبابل، اللتين كانتا بيد شمش ـ شم ـ أوكن، تحت الحصار وبذلك قطعوا الاتصال بين الطرفين الرئيسيين في الحلف. وفي عام ٦٥٠ق م فشلت محاولة قوة عربية لفك الحصار عن بابل كما فشل هجوم مضلل على الحدود الشرقية لفلسطين. وفي هذه الأثناء استمر الوضع في عيلام في التدهور وفي عام ٦٤٨ق م اندلعت الحرب الأهلية. وكان هناك ثلاثة أشخاص يطالبون بالعرش ويعملون للحصول على الدعم الآشوري غير أن الحزب المناوئ للآشوريين تمكن من السيطرة على الوضع وتعيين مرشحه. وكنتيجة للشقاق الداخلي في عيلام، لم يقدم إلى شمش ـ شم ـ أوكن الذي كان محاصرا في بابل ومدافعا عن تلك المدينة أية مساعدة عسكرية ذات قمة فاضطرته المجاعة إلى الاستسلام عام ٦٤٨ق م وكانت الأوضاع قد تردت إلى درجة الرعب بين المدافعين حتى أكلوا لحوم البشر، للتخلص من الإهانات التي ستوقع على جثته، فقد رمي شمش ـ شم ـ أوكن نفسه في لهيب نيران الحرائق. ونهب قصر الملك الميت وقبض وقتل كل متمرد باق وقطعت جثثهم "وأطعمت بها الكلاب والخنازير والذئاب والنسور وطيور السماء وأسماء الأعماق" وشغل آشور بانيبال نفسه عرش بابل لمدة سنة واحدة ولكنه حكم بابل في الفترة الباقية من حكمه من خلال ملك عرف باسم كاندا لانو Kandalanu. وقد ثبت عدم صحة الراي السابق القائل بأن اسم كاندا لانو ما هو إلا الاسم الذي عرف به آشور بانيبال في بلاد بابل كما كان تجلاتبليزر ـ الثالث قد عرف باسم بول Pul هناك.

وبدأت آشور تتدخل ثانية في مسألة اعتلاء العرش في عيلام والزحف إلى سوسا عام ٦٤٨ق م ولكن لم يكن بالإمكان التوصل إلى حل دائم للبلاد. وتمكن نابو ـ بيل ـ شماتي Nabu-bel-shumati حفيد مردوخ ـ ابلا ـ ادينا، من أن يستخدم عيلام قاعدة لنشاطات القبائل الكلدانية ضد بلاد بابل. وزحف الجيش الآشوري إلى بلاد عيلام وجابها جميعا بين عامي ٦٤٢ ة ٦٣٩ق م ودمر جميع مدنها وفتح ونهب سوسا وحمل آلهتها وجميع أثاث معابدها إلى بلاد آشور، وانتهكت حرمة هياكلها وبعثرت قبور الملوك العيلاميين حتى تلحقهم العقوبة بعد الموت ولكي تقاسي أرواحهم رعب عدم الراحة والعطش من عدم وجود قرابين من الأطعمة والأشربة المعتادة. وأخذ عدد من كبير من كبار موظفي الإدارة مع جميع أفراد العائلة المالكة بجميع فروعها أسرى إلى آشور، على حين ادمجت

الوحدات المقاتلة المتخصصة بالجيش الآشوري كما أخذ عدد كبير من عامة المواطنين إلى آشور مع أعداد كبيرة من قطعان الماشية والخيل. وأعيد ثانية تمثال الآلهة ننا آلهة الوركاء (يجب عدم الخلط بين ننا وننّا غله القمر في أور) الذي كان قد أخذ من قبل عيلام قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة، إلى مكانه الأصلي. ولابد أن ذلك كان ضمانا لآشور بانيبال لنيل تأييد إدارة معبد الوركاء القوية والتي أصبحت منذ ذلك الحين العاصمة الفعلية لإدارة جنوبي بلاد بابل.

وقد خلص ملك عيلام الحاكم أومانا لداش Ummanaldash نفسه من الأسر بالهرب إلى الجبال، وبانسحاب الآشوريين عاد إلى ماداكتو حيث كانت سوسا آنئذ مخربة ومهجورة وعبارة عن أكوام من الأنقاض ولم يعد في موقف يمكنه من حماية نابو ـ بيل ـ شماتي، الزعيم الكلداني. وعندما طلب آشوربانيبال استسلام ذلك الأمير، أي نابو ـ بيل ـ شماتي، أمر حامل درعه أن يقتله كما فعل الملك شاؤول (سفر صموئيل، الإصحاح ٣١: ٤-٥). وأرسل أومانالداش الجثة محفوظة بالملح إلى آشور بانيبال الذي لم يتمكن من أن ينزل العقوبة على الرجل حيا فانتقم لنفسه من شبح الضحية وذلك بعدم دفن الجثة. ووقع أومانالداش نفسه أخيرا بأيدي الآشوريين وتبين القطع النحاسية المحفوظة في المتحف البريطاني الحاكم المأسور مرسلا بعربة إلى الملك آشور بانيبال.

ولم يؤلف العنصر الآخر في العصيان البابلي، وهم العرب، مشكلة كبيرة حيث تمكن الجيش الآشوري في سلسلة من العمليات وقعت بين عامي ٦٤١ و ٦٣٨ق م من دحر القبائل وأسر القادة الرؤساء ومن بينهم اثنين ربطا ليكونا مثلا في أحد مداخل نينوى الكبيرة.

ولا تستمر حوليات الملك آشور بانيبال الذي حكم إلى عام ٦٢٦ق م إلى ما بعد عام ٦٣٩ق م. أما بالنسبة للأحداث التي وقعت في السنوات الثلاث عشر الباقية فلابد من الاعتماد على الإشارات الواردة في مراسلات الدولة والوثائق الاقتصادية وعلى نصوص الصلوات وغيرها من النصوص ذات العلاقة الموجهة إلى الآلهة. وإحدى ترانيم التوبة من هذه الفترة تندب:

"في البلاد خلاف، وفي القصر نزاع، لا تترك جانبي، التمرد والتآمر الشرير يخطط ضدي دائما".

ومن المحتمل أن الإشارة هنا إلى الخلاف حول اعتلاء العرش إضافة إلى أمور أخرى. ومن المؤكد أنه كان هناك عند وفاة آشور بانيبال عام ٦٢٦ق م محاولة لاغتصاب العرش وكان على الخليفة المختار أن يقاتل ليعتلي العرش. وأن تسلسل الأحداث في الفترة بين وفاة آشور بانيبال وسقوط نينوى عام ٦١٢ق م تثير كثيرا من المشاكل الصعبة. وأن الموجز التالي يمكن أن يدعي فقط بأنه محاولة للوصول لأقل ما يمكن من التفسيرات غير المحتملة للأدلة المتناقضة.

ولقد زادت الأدلة وضوحا، وفي الوقت نفسه زادت تعقيدا، بالعثور على نص يعود إلى والدة آخر ملوك السلالة الكلدانية التي أسست في حران. فإن هذه السيدة الطيبة التي كانت كاهنة عليا في مدينة حران، وعاشت مائة وأربع سنوات، تذكر على وجه التخصيص بأنها عاشت:

"من السنة العشرين من حكم آشور بانيبال، ملك آشور ـ عندما ولدت ـ إلى السنة الثانية والأربعين من (حكم) آشور بانيبال، والسنة الثالثة من (حكم) ابنه آشور ـ اطلي ـ ايلي، والسنة الحادية والعشرين من (حكم) نبوبولاصر، والسنة الثالثة والأربعين من (حكم) نبوخذ نصر، والسنة الثانية من (حكم) اميل ـ مردوخ، والسنة الرابعة من (حكم) نرجال شاراوصر خلال خمس وتسعون عاما".

وحتى بداية حكم ابنها. وحيث أن ذلك يعطي تاريخ نهاية حكم آشور بانيبال في عام ٦٢٦ و٦٢٧ق م، وكما هو معروف من مصادر أخرى أن نبوبولاصر تسلم ملوكية بلاد بابل في كانون أول من عام ٦٢٦ق م فيبدو أن السنوات الثلاث التي أعطيت لملكية آشور ـ اطلي ـ ايلي في بلاد بابل تثير المشكلة. وإذا لم نعتبر هذا التناقض بأنه نتيجة هفوة بسيطة في الذاكرة من جهة شخص معمر فلابد وأنها تمثل فترة تداخل ادعى فيها كل من آشور ـ اطلي ـ ايلي ونبوبولاصر ملكية بلاد بابل. ومن المؤكد أن آشور ـ اطلي ـ ايلي مارس سيطرة كبيرة على بلاد بابل في بعض من حكمه القصير حيث يذكر احد النصوص أنه كان

بمقدوره ان يقدم الحماية على شيخ قبيلة بيت ـ داكوري الكلدانية. على حيث قام بترميم معبد في دلبات على بعد خمسة عشر ميلا جنوبي بابل. ومن المؤكد أيضا أن القائد الكلداني نبوبولاصر تولى ملكية بلاد بابل في أواخر عام ٦٢٦ق م وأن حقيقة سيطرته يستدل عليها من حقيقة تاريخ الوثائق الاقتصادية في بابل وأوروك وأور في عهده في هذا الوقت. ومن المحتمل أن تفسير المشكلة هو أن سيطرة الآشوريين على بعض أجزاء بلاد بابل لم تكن قد فقدت تماما عندما تولى نبوبولاصر الملوكية أول الأمر وأن حديث بيروسس (وهو كاهن بابلي من القرن الثالث قبل الميلاد كتب بالإغريقية التاريخ البابلي) يؤكد هذا بالتحدث عنبنو بولاصر باعتباره ثائرا ضد سن ـ شار ـ أوشكن وهذا يشير إلى أن آشور كانت ما تزال لديها بعض النفوذ على بلاد بابل عند اعتلاء الأخير على العرش. وحكم سن ـ شار ـ أوشكن، الذي يعتبر عادة خليفة آشور ـ اطلي ـ ايلي، سبع سنوات على الأقل كما يستدل على ذلك من تاريخ العقود. وتشير جداول الملوك المكتشفة حديثا إلى أن تداخل حكم آشور ـ اطلي ـ ايلي وسن ـ شار ـ أوشكن في بعض أجزائه يدل على أن كلا منهما قد حكم جزءا من الإمبراطورية التي كان يحكمها سابقا آشور بانيبال كوحدة واحدة. وهذا يدل أيضا على وجود توتر كان يقترب من الحرب الأهلية في داخل بلاد آشور نفسها وكان تحالف نبوبولاصر الذي قضى أخيرا على بلاد آشور في حكم سن ـ شار ـ أوشكن.

وكانت الأقوام التي عقد نبوبولاصر التحالف معها هي الأقوام الميدية. وقد ذكر الميديون في الحوليات الآشورية آخر مرة في حكم أسرحدون عندما كانوا مؤلفين من عدد من القبائل المتنقلة إلا أنها متعاونة. وربما بدأت هذه القبائل بالاتحاد مع بعضها مؤلفة مملكة واحدة بقيادة هناكشاترا Hunakshatra المعروف في النصوص البابلية باسم أوماكيشتا Ummakishta وعند هيرودتوتس باسم كي ـ اخسار Cyaxares وذلك في بداية حكم آشور بانيبال. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي جعل فيه جميع الشعب الميدي مستقلا تماما عن آشور غير أن القصة التي يرويها ديودورس سيكولونس (وهو صقلي معاصر ليوليوس قيصر كتب تاريخ العالم) أن نبوبولاصر Belesysشجع كي ـ اخسار على العدوان ضد آشور ووعده بالنجاح تشير إلى أنه لم يكن قبل وفاة آشور بانيبال. وعلى كل حال، فإن كلا

من المصادر المسمارية والإغريقية تتفق بأن نبوبولاصر وكي ـ اخسار قد قاما بعمليات عسكرية مشتركة بعد عام ٦٢١ق م بفترة قصيرة.

بلاد آشور بدون حلفاء نهائيا

ولم تكن بلاد آشور بدون حلفاء نهائيا. فكان المصريون، مع عدم اهتمامهم بالتوسع، مهتمين كثيرا لأي تطور قد يؤثر على تجارة البحر المتوسط أو أمن مصر وأنهم لم يكونوا بالتأكيد راغبين في أن يشاهدوا سوريا وشمال بلاد ما بين النهرين تحت إدارة جديدة تماما والتي ستمثلها السيطرة الميدية. إضافة غلى ذلك، فهناك خطر الحشود التي كانت تطوف في الشمال وهي الحشود الكمرية والسكيثية وقبائل رحل مختلفة أخرى من أصل هندو ـ أوربي، وكانت آشور بسمعتها العسكرية التي اكتسبتها خلال القرون تبدو بأنها الحصن الوحيد ضد هذا التيار من البربرية. وأن إشارة أرميا في عام ٦٢٦ق م بأنه رأى:

مرجل يغلي، وأن الوجه هناك من الشمال (ارميا، الإصحاح الأول -١٣) تؤخذ عادة للدلالة على توقع حدوث غزو من الرحل المرعبين في الشمال. وقد استخم مصطلح كيثين غالبا للدلالة على هؤلاء الأقوام غير أن الواقع أن العنصر السكيثي يؤلف جزءا منها فقط ويمكن الحكم من العلاقات الآشورية معهم أنهم كانوا الجزء الأكثر مسئولية.

وبين المقاطعات الآشورية والدول التابعة، من أبدت العداء للآشوريين، كمملكة يهوذا، وبعضها الآخر، لاسيما بعض الميديين قدم مساعدات إيجابية إلى اسيادهم. وحتى في بلاد بابل، فكما يمكن الحكم على ذلك من التاويم التي استخدمت سنى حكم سن ـ شار ـ أوشكن، كانت هناك بعض المدن التي ظلت موالية إلى بلاد آشور حتى سقوط نينوى الأخير كما يبدو ذلك واضحا بصورة خاصة في مدينة الوركاء حيث يعتقد أنه حدث هناك عصيان مؤيد للآشوريين في وقت متأخر حوالي عام ٦١٤ق م.

وليس هناك تفاصيل في المصادر المسمارية عن نشاطات نبوبولاصر في مراحلها الأولى ولكن من الواضح أنه أخرج الحاميات الآشورية من بلاد بابل جميعها جنوبي الرقبة المشكلة عند أقرب نقطة من الفرات ودجلة وذلك عام ٦١٧ق م ثم تقدم نبوبولاصر إلى أعلى الفرات إلى المناطق الآرامية سوهو Suhu وهندانو Hindanu بين هيت ومصب

الخابور والتي كانت جزءا من الإمبراطورية الآشورية لأكثر من قرنين ونصف. وقد لاقى نبوبولاصر بعض النجاح المبدئي في هذه المنطقة حيث خضع الآراميون بسرعة وضربت الهجمات الآشورية المضادة وربما تضمنت الاستراتيجية الأصلية المرسومة إثارة عصيان عام في المقاطعات الغربية ليتفق ذلك مع الهجوم على نينوى من الشرق والغرب من قبل الميديين والكلدانيين. ومع هذا، فإن تقدم الجيش الآشوري والمصري الموحد اضطر نبوبولاصر إلى الانسحاب إلى بابل. وتقدمت القوات المصرية الآشورية الموحدة شرقا على مقاطعة أرابخا، ويجدر أن نتذكر أن هذه الماقطعة التي وضع أسسها أدد نراري الثاني ووسعها تجلاتبليزر الثالث واستخدمها هو وخلفاؤه باعتبارها أحسن الوسائل الناجحة للهجوم على مركز بلاد بابل دون الحاجة إلى المجازفة في عبور منطقة سهلة الدفاع كالتي عند الرقبة التي يشكلها اقتراب نهر الفرات من دجلة. وفي إحدى النقاط جنوبي الزاب الأسفل اعترضت القوات الآشورية وأجبرت على الانسحاب من قبل الجيش الذي جلبه نبوبولاصر هناك.

وأوشك الهجوم المقترح على آشور، العاصمة القديمة، في بداية السنة الثانية (٦١٥ق م) أن يجلب الكارثة على نبوبولاصر الذي اضطر للهرب واللجوء إلى قلعة المدينة التي كانت، ومازالت، تعرف بتكريت. ولم يرغب الآشوريون أن يضغطوا على خصومهم فانسحبوا ومن المحتمل أن جهاز استخباراتهم كانت لديه معلومات عن هجوم ميدي ابتدائي خطط في الواقع على مدينة غير محددة في مقاطعة أرابخا في نهاية السنة لغرض تأسيس قاعدة أمامية يمكن الهجوم منها على نينوى نفسها. وحدث الهجوم الميدي على مركز بلاد آشور عام ٦١٤ق م ومع أن نينوى كانت أقوى من أن ترضخ للاعتداء، إلا أن تربيص)شريخان الخالية شمال غربي نيوى) وآشور أخذتا ودمرتا نهائيا. ووصل نبوبولاصر على رأس جيشه إلى المدينة المقترحة واختتم عمل الميديين والكلدانيين المشترك بمعاهدة رسمية بين نبو بولاصر وكي اخسار وصدق عليها، استنادا إلى أخبار متأخرة، بزواج سياسي.

وبذهاب مقاطعة أربخا كموقع استراتيجي للآشوريين، حاولت القوة الإمبراطورية أن تقوم بهجوم مضاد على بلاد بابل باتجاه الفرات. فقد أعلنت حينئذ قبائل السوهو التي

كانت قد خضعت إلى نبوبولاصر عام ٦١٥ق م العصيان وبينما كان نبوبولاصر يقوم بعمليات لمحاصرة عانة، ظهر جيش آشوري وأجبره على الانسحاب ومن الغريب أن الميديين لم يكونوا فعالين عام ٦١٣ق م بعد نجاحهم الباهر ضد آشور في السنة السابقة إلى درجة أن آشور تمكنت من إرسال جيش إلى مكان بعيد من الوطن. وهناك من يرى أنه من المحتمل أن آشور كانت تتفاوض مع السكيثيين للقيام بهجوم على الميديين من الشمال. وكان السكيثيون، الذين لم تصطدم مصالحهم مباشرة مع مصالح الآشوريين، على علاقة صداقة تقليدية مع تلك القوة تعود إلى أول ظهورهم في الشمال في عهد أسرحدون. وكانوا يشكلون حليفا احتياطيا ذا قوة كبيرة.

وتشير الروايات الإغريقية المتأخرة أن الميديين كانوا في وقت من الأوقات مهددين بالخطر من قبل السكيثيين ولكنهم تمكنوا أخيرا من إقناع القادة بأهدافهم المشتركة. أما في المصادر البابلية، فلم يشر إلى القبائل الرحل في الشمال بالسكيثيين ولكن بالأمانماندا Um-manmanda، وهو مصطلح أثيرت حوله مناقشات عديدة ويبدو أنه كان يعني تقريبا ما يعنيه مصطلح (الحشود) Hordes. ومن المؤكد أن الأومانماندا ضموا بعض العناصر السكيثية وبعض العناصر العرقية الأخرى. ومن المحتمل أيضا أنه كان هناك بعض الشك حول الجانب الذي سيأخذه هذا الحلف من القبائل إلى ما بعد أن تمكن كي ـ اخسار من أن يلتقي ويتفوق على أكثر قادة هذا التحالف من القبائل تأثيرا. وفي عام ٦١٢ق م كون نبوبولاصر والأومانماندا وكي اخسار قوة مشتركة وزحفوا على نينوى. وسقطت المدينة بعد حصار دام ثلاثة أشهر ومات آخر ملوكها سن ـ شار ـ أوشكن، استنادا إلى المآثر الإغريقية، في لهيب تدميرها. ونهبت المدينة وسلبت واستبعد الباقون من سكانها. وتؤكد أخبار الكتاب الإغريق وكذلك سفر ناحوم (الإصحاح الأول ٨) أن فتح هذه المدينة المحصنة تحصينا قويا كان ممكنا بسبب فيضان نهر دجلة الذي اكتسح أجزاء من تحصيناتها.

ودمرت العاصمة، ولكن ظلت مملكة آشور قائمة اسميا حيث قام جزء من الجيش الآشوري الذي تمكن من الهرب من نينوى إلى حران، حوالي مائة ميل إلى الغرب، من تنصيب آشور ـ أوبالط أحد أفراد العائلة المالكة الصغار ملكا وطلب مساعدة حلفائه المصريين.

الإمبراطورية البابلية الحديثة

انسحبت القوات الميدينة والأمانماندية محملة بغنائم مدينة الإمبراطورية وكانت مساعي نبوبولاصر حينئذ متجه للسيطرة على أكبر جزء ممكن من الإمراطورية الآشورية وقد استخدم لهذا الغرض قواته لتحتل إقليم نصيبين غربي بلاد آشور وكذلك مركز بلاد آشور نفسها والأقاليم الواقعة على طول الفرات الأوسط وقام بمساع نشطة ليحصل على ما يمكنه من الشمال في منطقة أورارتو. ومع ذلك، فقد كان للسكيثيين مصالح في الإقليم الأخير منذ مدة طويلة ففشل نبوبولاصر في الحصول على سيطرة دائمة على أي جزء منها باستثناء كيليكيا وظلت بقايا الجيش الآشوري في حران دون أن تهاجم وربما كان ذلك بسبب رغبة نبوبولاصر العاجلة والملحة هي السيطرة الفعلية على أكبر جزء ممكن من بلاد آشور قبل عودة الأمانماندا. وحصل ذلك في عام ٦١٠ق م عندما قاموا بهجوم على حران ما لبث نبوبولاصر أن التحق به ليحافظ على مصالحه الخاصة. أما آشور ـ أوبالط فلم يحاول الدفاع عن المدينة بل هرب باتجاه الجنوب الغربي لينتظر حلفاءه المصريين وترك حران للاحتلال والنهب من قبل الأومانماندين. وكانت بقايا الجيش الآشوري، بعد أن تقوت بالقوات المصرية التي التحقت بها، في موقف مكنها من القيام بهجوم مضاد على حران وحصلت فيها على بعض التقدم.وقد أجبر تقدم جيش نبوبولاصر رفع الحصار وانسحبت القوات الآشورية والمصرية إلى كركميش. وهنا اعتلى العرش المصري نيخو الثاني (٦١٠-٥٩٥ق م) الذي قرر اتخاذ إجراءات على نطاق أوسع لتأييد آشور ـ أوبالط وسارع في قيادة الجيش المصري الرئيس إلى سوريا (أخبار الأيام الثاني. الإصحاح: ٣٥: ٢١) ويبدو أن الدبلوماسية الكلدانية قد لاقت نجاحا كبيرا في فلسطين، حيث كان على نيخو أن يقضي على عصيان في غزة (سفر أرميا، الإصحاح: ٤٧: ١(، في حين حاول يوشيا ملك يهوذا، وهو الحاكم المحلي الرئيس المتبقي في فلسطين، أن يغير على القوات المصرية في طريقها باتجاه الشمال فدحر وقتل عند مجيدو (٦٠٨ق م) (سفر الملوك الثاني، الإصحاح: ٢٣: ٢٩)، وأصبحت مملكته نتيجة لذلك تابعة بصورة مؤقتة إلى مصر. ولم يكن من الصعب على نيخو أن يخضع سوريا، والتحم بقوات آشور ـ أوبالط في كركميش. وقام البابليون بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي (عام ٦٠٥ق م) تحت قيادة نبوخذ نصر ابن

نبوبولاصر. وكانت مذبحة كبرى بالنسبة لكلا الطرفين لان "بطلا يصدم بطلا فيسقطان كلاهما معا")سفر أرميا، إصحاح: ٤٦: ١٢). واستنادا إلى أرميا، الإصحاح: ٤٦: ٥ وفيما بعد فقد حل الرعب في الجيش المصري وهرب مخذولا ومن غير نظام إلى مصر. وقد انتشرت دعاية هزيمة الجيش المصري إلى أماكن بعيدة وشعر الرعايا المواطنون بأن الوقت قد فات للقيام بعمليات أخرى ضد الكدانيين "وقد نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك وقالوا بأن الفرعون، ملك مصر هو مجرد ضوضاء" وأنه "قد فات الميعاد" (أرميا الإصحاح: ٤٦: ١٧). وقد تمكن نبوخذ نصر من ملاحقة المصريين المنسحبين إلى حدودهم وكان بإمكانه الاستمرار والتوغل في مصر لولا وفاة والده نبوبولاصر في تلك اللحظة والذي تلطب حضوره في بابل.

لعل من غير الضروري التأكيد على قابلية نبوخذ نصر كسياسي وقائد عسكري فإن نشاطاته في هذه المجالات قد جعلت منه واحدا من أشهر شخصيات العالم القديم. وقد شعر أرميا، الذي عاصره، في بداية حكمه بأنه سيكون القوة الجديدة في السياسة الدولية وقدر فترة حكم إمبراطوريته بثلاثة أجيال (أرميا، الإصحاح: ٢٧: ٧) وقدم يهوياقيم -Je hoiakim ملك يهوذا المعين من قبل نيخو

ملك مصر الخضوع إلى نبوخذ نصر عندما دحر الجيش المصري غير أنه عاد للتحالف مع مصر عندما وجد الفرصة سانحة. ومع ذلك، فقد أثبتت الأحداث أن تقدير أرميا للموقف كان أحكم من السياسيين حيث أرسل نبوخذ نصر عام ٥٩٧ق م قوات لمحاصرة أورشليم. وكان من حظ يهوياقيم أن مات أثناء الحصار وأخذ ابنه يهوياقين أسيرا إلى بابل مع النبلاء والحرفيين والقوات.

وبوقوع جميع فلسطين وسوريا ثانية بأيدي قوى معادية، فقد كان لابد وأن تتأثر تجارة مصر كثيرا والتي اعتمدت على الموانئ الفينيقية. وربما يفسر ذلك قرار حوفرا (إبريز) ملك مصر (٥٨٩-٥٧٠ق م) المذكور في سفر أرميا إصحاح: ٤٤: ٣٠) أن يقوم بغزو فلسطين. وقد حققت القوات المصرية نجاحا في أول الأمر وأخذت صيدا واضطربت الحاميات البابلية في أورشليم، وبدون شك في غيرها من المدن، على الانسحاب تاركة القادة المناوئين

للبابليين مسيطرين على الوضع. وكما تنبأ أرميا، فقد كان رد فعل نبوخذ نصر قويا حيث أرسل جيشا قويا إلى الغرب. وسارع المصريون في الانسحاب تاركين تابعيهم السابقين يقضي عليهم فرادا من قبل القوات البابلية. وحوصرت أورشليم لمدة ثمانية عشر شهرا واستسلمت من المجاعة أخيرا (عام ٥٨٦ق م). وفقئت عينا صدقيا آخر ملوك يهوذا وأخذ أسيرا إلى بابل (سفر الملوك الثاني: الإصحاح: ٢٥: ٧)، وسلبت أورشليم ونهبت وأزيلت تحصيناتها وقتل زعماء الحزب المناوئ للبابليين وعين أحد النبلاء الموالين للبابليين حاكما وسبي قسم كبير من السكان الباقين إلى بلاد بابل. وأخضعت المدن المتمردة الأخرى بالتعاقب وحوصر ميناء صور العظيم ولم ترد الإشارة إلى العملية الأخيرة من قبل منادر Menander (342-292ق م) الذي ذكر بأنها استمرت لمدة ثلاثة عشر سنة بل كذلك ذكرت عدة مرات من قبل النبي حزقيال الذي عاصر الأحداث)سفر حزقيال: الإصحاح: ٢٦-٢٩) وصور حزقيال صول أول الأمر بأنها تحدق على سقوط أورشليم: "سأكون شبعانا، الآن لأنها ستخرب" (الإصحاح: ٢٦ (2 :ـ قد تحولت إلى "امتلئ إذ خربت" ـ وهي إشارة إلى حقيقة أن التجارة من مصر وما وراءها كانت تمر شمالا أما بطريق بري خلال فلسطين أو بحري إلى الموانئ الفينيقية. وقد وصف المغامرات التجارية والثراء الاقتصادي لمدينة صور بشكل مجسم:

ترشيش ـ [طرسوس في آسيا الصغرى] ـ تاجرتك بكثرة كل غني بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك. ياوان ـ [اليونان] ـ وتوبال ـ [تابال في المصادر الآشورية] ـ وماشك ـ [مشكو] ـ هم تجارك. بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك ومن بيت توجرمة [تل ـ كاريحو في المصادر الآشورية] بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك. بنو ددان تجارك جزائر كثيرة تجار يدك: أدوا هديتك قررنا من العاج والأبنوس. أرام تاجرتك بكثرة صنائعك...

حران وكنة وعدن، تجار سبأ وآشور وكلمد تجارك...

هؤلاء تجارك بنفائس باردية اسما نجونية ومطرز وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز بين بضائعك".

(حزقيال: الإصحاح: ٢٧: ١٢ ـ ١٦، ٢٣ ـ ٢٤)

وأخذت أخيرا مدينة صور عام ٥٧١ق م وثبت فيها إدارة بابلية إقليمية.

وفي هذه الأثناء تمكن كي ـ اخسار بمساعدة حلفائه من بين الأومانماندا أن يقضي على مملكة أورارتو ويتوغل إلى داخل آسيا الصغرى حيث احتك بمملكة ليديا، وهي مركز تجاري مزدهر. وقد أمكن وضع حل لبعض الصدامات الأولية عام ٥٨٥ق م بمعاهدة توسط فيها نابونائيد (نيو نيدس) أحد ضباطه وبالتالي من خلفاء نبوخذ نصر، ثبتت حدود النفوذ بين ليديا والميديين بنهر خاليس Halys.

وحافظ نبوخذ نصر على علاقات صداقة مع الميديين وكانت مشكلته الرئيسة في مجال السياسة الخارجية هي مصر. ولم تكن دوافع اهتمام نبوخذ نصر بالغرب عسكرية فقط بل اقتصادية أيضا. فقد كان اتحاد الميديين قد جرد بلاد بابل بشكل كبير من سيطرتها على الطرق التجارية الشرقية)على الرغم من أن الصعوبة لم تظهر في فترة شهر العسل التي أعقبت نهب نينوى مباشرة) في حين أصبحت الموانئ البابلية التي كانت مزدهرة مغمورة. ولهذا السبب، فقد اتجه الملوك البابليون الجدد نحو الغرب في محاولة للسيطرة على الطرق القادمة شمالا من الجزيرة العربية. وكانت مصر، مع ذلك، بعد أن ضربت تجارتها بسيطرة البابليين على الساحل الفينيقي وساحل كيليكيا تحاول دائما أن تضعف سيطرة البابليين في الغرب. ويتحدث سفر الملوك الثاني: الإصحاح: ٢٥: ٢٢-٢٦ عن اغتيال الحاكم المحلي الذي عينه نبوخذ نصر على أورشليم، وربما بموافقة المصريين إن لم يكن ذلك بتحريضهم. وأخيرا قام نبوخذ نصر، كما تشير كسرة من رقيم طيني، بغزو مصر الذي أشير إليه في سفر حزقيال الإصحاح: ٢٩: ١٩-٢١. وليس هناك تفصيلات معروفة غير أن أخبار أرميا (الإصحاح: ٤٩: ٢٨) وهيرودوتس تشير إلى هجوم ناجح على القبائل العربية في الصحراء.

عهد نبوخذ نصر عهد نشاطات معمارية

وكان عهد نبوخذ نصر عهد نشاطات معمارية عظيم في بلاد بابل، وأن الآثار الباقية في بابل هي بالدرجة الرئيسة من عهده. فقد زيدت تحصينات بابل قوة وحوفظ على خط دفاع

أول وثان. وكان النهر على الجانبين مع سلسلة من القلاع في الشمال والجنوب من بابل يؤلف خطا دفاعيا رباعيا حول المدينة.

وعند وفاة نبوخذ نصر عام ٥٦٢ق م، خلفه ابنه اميل ـ مردوخ (اويل مردوخ في سفر الملوك الثاني: الإصحاح: ٢٥: ٢٧ وأرميا: الإصحاح: ٥٢: ٣١) الذي قتل في ثورة بعد حكم قصير دام سنتين. ولا يعرف عنه إلا الشيء القليل إلى جانب ما ذكره سفر الملوك الثاني: الإصحاح ٢٥: ٢٧-٣٠ من أنه أظهر حسن معاملته إلى يهوياكين، وهو أحد ملكين من ملوك يهوذا كانا مسجونين في بابل. ومن الغريب أن هناك إشارة مباشرة إلى يهوياقين في بعض الرقم المسمارية المكتشفة في بابل التي تعود إلى عهد نبوخذ نصر. وتمثل هذه الرقم قوائم جرايات وأن الجزء الخامس من أحدها يذكر:

"إلى يهو ـ كينا ملك بلاد يهودو، لابناء ملك بلاد يهودو الخمسة (و) لثمانية يهود، كل منهم ١/ ٢ سيلا (من الحبوب".

ومن الناحية اللغوية، فإن يهو ـ كينا ملك يهود وهو بدون أي لبس الاسم الذي ذكره مترجم العهد القديم على هيئة يهوياكين (يهوياقين) ملك يهوذا وقد استفاد من موت اميل ـ مردوخ نرجال ـ شاراوصر (في الأخبار الإغريقية Neriglissarوفي سفر أرميا -Ner galsharzer الإصحاح: ٣٩: ٣ نركال ـ شار ـ أصر). وهو صهر نبوخذ نصر. والمعروف الآن من الحوليات البابلية بأنه قام بحملة كبيرة عبر طوروس وربما ليسبق توغل الميديين المتوقع عبر خالي Halys ودحر اندحارا كبيرا بعد نجاح ابتدائي وعاد إلى بابل عام ٥٥٦ق م وتوفي بعد عودته مباشرة مما يدفع للتخمين بأن منافسيه الشخصيين في الوطن قد استغلوا فقدانه اعتباره فعجلوا في نهايته. ومن المؤكد أن ابنه لباشي ـ مردوخ الذي حاول اعتلاء العرش بالوراثة قد أزيح بعد ذلك بفترة قصيرة بمؤامرة قادها قائد قوات الدولة ونصب على العرش بدلا منه نبونئيد (نبونيدس) الدبلوماسي الذي بعثه نبوخذ نصر للقيام بالمفاوضات بين الميديين والليديين عام ٥٨٥ق. م.

ولم يكن نبونئيد من عائلة نبوبولاصر الملكية بل كان ابن أحد النبلاء وابن كاهنة الإله سن العليا في حران. وربما كانت هذه السيدة نفسها من العائلة الملكية الآشورية حيث أنها

ولدت في منتصف عهد آشور بانيبال، ومن المعروف أنه في الفترة قبل وبعد هذا الوقت كانت كهانة الهياكل العظمى العليا تمنح عادة لأمراء وأميرات العائلة المالكة.

وكانت العادة أن يصرف النظر عن نبونئيد باعتباره مثقف أثاري، أكثر ما يكون سرورا عندما يتمكن من الكشف عن بعض أحجار الأسس القديمة، غير أن نشر بعض النصوص الجديدة خلال السنوات الثلاثين الماضية قد أوضحت بأنه كان رجل سياسية ذو قابلية فائقة. فقد شعر بالمشكلتين الرئيستين الواجب مواجهتهما، المشكلة الاقتصادية في الإمبراطورية والوضع بالنسبة للديانة البابلية القديمة. أما بالنسبة للمشكلة الاقتصادية، فسنذكر أكثر عنها في مكان آخر. أما الآن فما يهمنا هو المشكلة الدينية. فقد كان عند الميديين واليهود، وكانت لكلاهما علاقات وثقى بالبابليين في هذا الوقت، أفكار دينية خلقية جديدة، تنم عن السخرية من الوثنية المشركة القديمة. وهناك من اقترح اقتراحا معقولا بأن نبونئيد حاول أن يجعل من الإله القمر، سن أوننا، الإله الحامي لمدينة أور ومدينة والدته حران، الإله الأعلى لجميع الإمبراطورية استجابة لهذا الوضع لمعرفته بعدم دقة دين الشرك القديم. غير أنه يجب عدم تضخيم ذلك وجعله حركة إلى جانب التوحيد، حيث لا يوجد هناك أي اثر لذلك، بل إنها كانت محاولة لإيجاد قوة دينية موحدة لجميع رعايا الإمبراطورية. فلم يكن للإله مردوخ، الإله البابلي الأعلى، وهو إله الشمس السومري القديم بمظاهره الأرضية وذو علاقة بمدينة بابل، أي مكان في مجمع آلهة العرب والآراميين في حين كان الإله ـ القمر، تحت أسماء مختلفة، مقدسا تقدسيا كبيرا عند هؤلاء الأقوام. وأن الاتجاه نحو الإصلاح الديني ربما كان قد بدأ منذ عهد نبوخذ نصر حيث كشفت التنقيبات في مدينة أور بأن هيكل زوجة الإله القمر قد أصابه بتغير في الطراز المعماري في عهد هذا الملك مما يشير إلى تغيير في الطقوس. غير أن نبوئيد كان هو المسئول بالدرجة الرئيسة عن هذه البدعة استنادا إلى أخباره وكذلك استنادا إلى اتهامات أعدائه عند سقوطه.

وكانت مدينة حران النقطة التي التقت بها المشاكل الدينية والاقتصادية. وأن اسم "حران" نفسه يعني "الطريق" وقد أطلق على المكان لأنه كان محل التقاء كبير للطرق الشمالية من بلاد بابل من جهة ومن مصر والجزيرة العربية وفلسطين من الجهة الثانية. كما كان المكان محل أحد هياكل سن الكبرى. ومن سوء الحظ فقد بقيت المدينة بأيدي

الأمانماندا منذ استيلائهم عليها عام ٦١٠ق م عندما دنسوا ودمروا معبد الإله القمر. ويتحدث نبونئيد في النصوص أن الإله سن العظيم (وفي نسخة أخرى صدرت في بلاد بابل أشرك بحصافة اسم الإله مردوخ، إله مدينة بابل) ظهر له في الحلم في السنة الأولى من حكمه قائلا: "أسرع وشيد أيخولخول Ehulhul [بيت فرح كبير] معبد الإله سن الذي في حران نظرا لأن جميع الأراضي قد سلمت بيدك. وفي النسخة الصادرة في بابل يشير نبونئيد إلى مردوخ "أما بالنسبة للمعبد الذي أمرت بأن يعاد بناؤه، فقد أحاطه الأمانماندا وأن قوتهم مرعبة". ويجيب مردوخ الجواب المدهش "لم يعد هناك وجود للأمانماندا الذين تذكرهم ولا لبلادهم والملوك حلفائهم. في السنة الثالثة القادمة سأجعل كورش ملك إنشان (أي فارس) خادمه الصغير، يطردهم. وسيكتسح بقواته القليلة الأمانماندا المنتشرين".

وكان الفرس اصلا إحدى القبائل الهندو آرية المهاجرة التي استقرت أخيرا في عيلام. وقد اسس عائلتهم المالكة في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، بعد أن قضى آشور بانيبال على السلالة العيلامية القديمة، أخمينس)حاخمانيش Hahmanish) الذي لقب ابنه نفسه بلقب "ملك إنشان". وكانت إنشان إحدى إمارات مملكة عيلام وأن اللقب الجديد تضمن الملكية على البلاد القديمة. وقد دفع ارتفاع شأن قوة مملكة فارس الملك الميدي استياجز As-tyagesأن يزوج ابنته من قمبيز الأول، ملك إنشان الثالث، ومن هذا الزواج ولد كورش Cyrus.

ويبدو واضحا أنه مهما كان مدلول مصطلح أمانماندا من عناصر عرقية، فإن ما ورد في حلم نبونئيد يشير إلى حامية تابعة للميديين. كما يوضح الحلم أن التقليد القديم بخصوص العلاقات الدبلوماسية بين الاسر الحاكمة في بلاد بابل وعيلام كانت لا تزال قائمة طالما كان نبونئيد وكورش يدبرون سوية مساع مشتركة ضد الميديين في سنة نبوئيد الثالثة أي عام ٥٥٣ق م.

وقد أصدر نبوئيد أمرا بتجنيد عام للوقات من الأقاليم الغربية وانسحب اليمديون، الذين كانوا مشغولون بعصيان كورش (الذي تمكنوا من القضاء عليه تقريبا (استنادا إلى الأخبار الإغريقية)، من حران وتمكن نبونئيد من استخدام مجنديه للبدء بمشروع الترميم.

وكان لذلك تأثير على تشجيع العصيان بين سكان مدن بلاد بابل الكبيرة حتى: "نسى أبناء بابل وبورسبا ونيبور واور وأوروك ولارسا وسكان المدن الدينية في أكد]شمال بلاد بابل[... واجباتهم وتحدثوا عن الخيانة وليس عن الطاعة". وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن نبونئيد كان يعدل لمثل ذلك. فقد كان الملك يمتلك مقاطعات واسعة في جنوب بلاد بابل وأن عقود أرشيف المعبد تثبت بأنه كان يعطي السيطرة على هذه المقاطعات إلى سلطات إدارة مبعد أي ـ أنا Eanna، وهي مؤسسة المعبد الكبيرة والغنية في الوركاء، مقابل أجرة سنوية مقطوعة، كما ظهرت إصلاحات إدارة المعابد في هذا الوقت وعين في الوركاء تعيينات جديدة لجميع الوظائف المهمة في السنوات الأولى من حكم نبونئيد.

وظهرت آنذاك المجاعة في بلاد بابل ونسبها نبونئيد إلى عدم تقوى الناس على الرغم من أن إرجاعها إلى الوضع الاقتصادي العام هو أكثر منطقية. فقد كان من نتائج الحروب والنشاطات العمرانية التي قام بها نبوخذ نصر ونرجال ـ شار ـ أوصر أن ظهر التضخم وارتفع مستوى الأسعار بنسبة ٥٠٪ بين عامي ٥٦٠ و ٥٥٠ق م (ولم يوقف هذا الاتجاه بتطورات تالية بل ارتفعت الأسعار بين عامي ٥٦٠ و٤٨٥ق م إلى ٢٠٠٪). ويمكن ملاحظة النتائج في الوثائق التجارية. وتعود إحدى هذه الوثائق إلى السنة الأولى من حكم نبونئيد وتتعلق بقرض من الحبوب إلى راع كانت ماشيته تموت جوعا في حين تتعلق نصوص أخرى بتسليم الأطفال إلى المعابد كعبيد وهي نتيجة جلية للفقر المدقع. وساهم انسحاب القوى العاملة لمدة سنتين في بعض الأحيان من الأعمال المنتجية على القنوات إلى الأعمال غير المنتجة في بناء المعابد أو الحروب في تدهور إنتاج البلاد ايضا، كما زادت الأوضاع الاقتصادية سوءا بسيطرة الميديين على الطرق التجارية إلى الشرق والشمال. ولا ريب أن حلف نبونئيد مع كورش كان بهدف الحصول على نتائج مثمرة فيما يتعلق بالناحية الأخيرة.

وقد اشير إلى أن نبونئيد قلما يذكر الناحية الاقتصادية في مشاريعه، ولذا فهناك شك فيما إذا كانت الناحية الاقتصادية تؤلف أي دافع رئيس في الأعمال التي قام بها فيما بعدز ومع هذا، فإن الوثائق الاقتصادية والإدارية من النوع الذي أشير إليه سابقا يبرهن بما لا يقبل الشك ولو بشكل عرضي بأن نبونئيد كان على موعد مع المشاكل الاقتصادية. وفي

نصوص الأهداء المخصصة للغلهة فإن من المنطق أن يدعي الملك بأن التقوى وليس الفوائد الاقتصادية هي الدافع الرئيس لمشاريعه.

وكانت استجابة نبونائيد للوضع في بلاد بابل محاولة رائعة لنقل مركز ثقل الإمبراطورية إلى الغرب وضمان الطرق التجارية من جنوب الجزيرة العربية. فنصب ابنه بيل ـ شار ـ اصر (في سفر دانيال: بيلشاصر: الإصحاح: ٥: ٢٢، ٧: ١، ٨: ١) وصيا على بلاد بابل وقاد جيشا إلى واحة تيماء في شمال غرب الجزيرة العربية من خلال سوريا، حيث أعدم هناك الملك المحلي واتخذ المدينة قاعدة له في السنوات العشر التالية. واندفع نحو الجنوب في خلال فترة إقامته في الغرب مسافة مائتين وخمسين ميلا ومر بأماكن يمكن معرفتها حتى وصل أخيرا إلى يثرب (المدينة في الإسلام، مدينة محمد صلى الله عليه وسلم) على البحر الأحمر. ويذكر نبونئيد على وجه التخصيص أنه ترك حاميات وأقام مستعمرات حول واحات ست ذكر أسمائهاويصف القوات التي استخدمها بأنها: "سكان أكد وبلاد ـ حاتي"، اي المواطنين البابليين وسكان المقاطعات الغربية. ومن النتائج العرضية الغريبة أن خمسا من الواحات الست المذكورة أسماؤهم كانت آهلة بالسكان اليهود في عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد ألف سنة. ومن الاقتراحات التي لا يمكن التغاضي عنها أنه كان بين القوات والمهاجرين الذين رافقوا نبونئيد فرقا من اليهود رغم أنه لا يمكن إثبات ما إذاكن كانوا من أولئك اليهود الذين تركوا فلسطين بعد فتح أورشليم أو أنهم من أولئك الذين اسروا إلى بلاد بابل.

ولعل انسحاب نبونئيد في هذه السنوات العشر عن عاصمته كان الأساس في قصة سني الجنون السبع التي نسبت إلى نبوخذ نصر سفر دنيال)الإصحاح: ٤: ٢٨-٣٣). ومن الأمور الشائعة أن تنسب أخبار بعض الأحداث الخاصة بأحد الأشخاص إلى شخص آخر أكثر شهرة ولكنه على علاقة تاريخيه به. ويخطر إلى الذهن كمثال على ذلك قتل جليات Galiath من قبل الحنان Elhanan التي تنسب عادة إلى داؤد (سفر صموئيل الأول: الإصحاح: ١٧-٥٠، صمويل الثاني: الإصحاح: ٢١: ١٩) ومن الأشكال الأخرى التي تبدو أنها من أخبار اليهود نفسها عن غضب الآلهة على أحد الملوك البابليين، ولو أنه مرتبط

هذه المرة بنبونئيد بدلا من نبوخذ نصر، ما ظهر في النصوص التي عثر عليها في قرمان التي أطلق عليها "لفائف البحر الميت".

والوثيقة المعنية، وهي أجزاء من مخطوط عثر على الجزء الأكبر منه في عام ١٩٥٥ ويعود بتاريخه إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد وهي جزء من تآليف كتب بالآرامية (وهي لغة قريبة من العبرية استخدمت في أجزاء من سفر دانيال وعزرا وبعض الجمل الأخرى في العهد القديم). وبعد كثير من الإضافات (ولعلها ليست صحيحة دائما) يمكن ترجمة الجزء المعروف)مستندين غلى درجة كبيرة على ترجمة: J. T. Milik, Re-Biblique, 63 (1936). Page 408 vue كما يأتي:

كلمات الصلوات التي قدمها نبونئيد، ملك بلاد آشور وبابل، الملك العظيم، قالها عندما ضرب بمرض جلدي لعين بأمر الإله الأعلى في مدينة تيما: "لقد ضربت بمرض جلدي لعين لمدة سبع سنوات... ولكن عندما اعترفت بذنوبي وخطاياي، متمنيا حكما (جيدا). وكان ناك يهودي من... وقد كتب وأخبرني أن أقدس... لاسم الإله الأعلى..."

وفي نهاية السنوات العشر كانت الأوضاع قد تغيرت إلى درجة كان بإمكان نبونئيد، الذي كان عمره آنذاك لا يقل عن خمس وستين ولعله أكثر من سبعين سنة، أن يعود إلى بلاد بابل دون أن يجابه أية معارضة لمشاريعه في إعادة بناء وإصلاح المعبد الكبير في حران.

وكان التحسن الوقتي في موقف نبونئيد يرتبط بنجاح حليفه السابق كورش. فبعد اعتلاء كورش على عرش إمبراطورية الميديين والفرس، اندلعت الحرب ثانية في آسيا الصغرى مع كروسس ملك ليديا. وبحملة شتوية غير متوقعة، نجح كورش عام ٥٤٧ق م في الاستيلاء على ساريس Sardes عاصمة كورسس Crosus. وبجعله لديا مقاطعة فارسية، حصل على تأييد المتسعمرات الإغريقية في غرب آسيا الصغرى. وبعد أن انتهى كورش من ذلك، كان قادرا لأن يباشر بعمليات أولية ضد الإمبراطورية البابلية التي بدأها عام ٥٤٧ق م وسيطر على أجزاء من شرقي بلاد آشور. ولعله أراد بذلك ن يستبق هجوما بابليا على ميديا حيث أن الإقليم الذي أخذ كان الإقليم الذي يتخذ قاعدة لمثل هذا الهجوم في العهود الآشورية. ويذكر هيرودتس أن كروسس كان متحالفا مع كل من نبونئيد

والمصريين وأنه طلب المساعدة العسكرية قبل الهجوم المفاجئ الذي أدى إلى سقوطه. وأن توافق تاريخ الأحداث يجعل من المنطق أن نفترض أن التهديد العسكري من الشرق قد أدى إلى وحدة مؤقتة في بلاد بابل ودعى إلى عودة الملك وقيادته الفعالة.

وكان جنوب بلاد بابل معرضا دائما لغارات مفاجئة من عيلام وقد قاست من ذلك عام ٦٤٥ق م. وتبدو الأحداث عندئذ مرتبكة وربما عاد نبونئيد فعلا غلى بابل بعد هذه الحادثة ليشرف على الدفاع عن بلاده. ولم يكن الوضع متأزما، فقد ظلت الوركاء، وهي المدينة الرئيسة في الجنوب، بأيدي نبونئيد على الرغم من الغارة العيلامية، كما لم تبد سوريا والغرب أي دليل عن الاستياء، ويمكن الاستدلال مما ذكره هيردوتس أن مصر كانت أيضا حليفا احتياطيا. ومع هذا، فبينما كان الملك المسن يكمل مشاريعه الطويلة الأمد في تعمير معبد أخولخول Ehulhul في حران، كان كورش مشغولا بحرب الدعاية في الإمبراطورية البابلية. وكان عمله نحو كروسس الذي أحسن إليه واحترمه ونحو حكماء الإغريق في آسيا الصغرى الذين تحملهم ليسلبهم، قد أضفى عليه صفة الاعتدال والتسامح الديني الذي ينعكس في سفر أشعيا. وأن النبي المجهول المعروف حاليا باسم Deutro-Isaiah (سفر أشعيا، الإصحاح: ٤٠-٥٥). ادعى أنه يتكلم عن الرب: "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمما...، قائلا "لأجل عبدي يعقوب، وإسرائيل مختاري، دعوتك باسمك ولقبتك وأنت لست تعرفني" (سفر أشعيا: ١٤٥ :، ٤). ولابد أنه كان هناك دعايات مشابهة تختمر في بابل وتنعكس في الأخبار الحاقدة التي كتبت عند سقوط نبونئد. وما يأتي هو ترجمة)معتمدة على سدني سميث في Babylonian His-torical Texts (1924). P. 87)لأحد النصوص من هذا النوع ومما يؤسف له أنه في حالة رديئة جدا. ويشير إلى نبونئيد بأنه:

....لم يجعل العدالة تنبثق عنه، ....قتل الضعيف بالسلاح،) ....بالنسبة) للتاجر، أغلق الطريق .... وفي الوقت المناسب في عيد رأس السنة الجديدة] أوصى بأن لا يكون هناك أفراح ....عفريت ـ الشيدو غيره .... قام بالأعمال غير المقدسة ....وأقام [تمثالا هرطقيا] على قاعدة، ....ودعا اسمه "الإله سن" ....وكان شكل القمر هو الخسوف واعتاد أن يخلط بين الطقوس، ويفسد الأوامر، ويتحدث بكلمات ضد الأوامر المقدسة.

وتوغل كورش بالتدريج إلى الأمام إلى جبال كردستان ولورستان إلى أن سيطر تمام على جميع الإقليم شرقي دجلة ومن هناك كان بإمكانه أن يقوم بهجوم على بلاد بابل نفسها. وعبر كورش نهر دجلة بالقوة عند أوبس Opis وزحف إلى سبار التي استسلمت ثم هوجمت بابل نفسها واستسلمت دون مقاومة تذكر. وينسب هيرودتس ذلك إلى خدعة الفرس بكسر نهر الفرات الذي يكون أحد جوانب الدفاعات عن المدينة وخفض المياه فيه وبذلك جعل من الممكن عبور المجرى الرئيس مؤقتا. وليس هناك ما يدعو لرفض القصة، ولكن لم تكن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انهيار المدينة هي ضعف دفاعاتها بل وجود "رتل خامس" في داخل المدينة. فإن تشكك نبونئيد لسيادة الإله مؤدوخ قد اثار ضده السخط على الرغم من ادعاءاته بأنه أعاد العلاقات الودية مؤتقا في أحد نصوصه بعد عشر سنوات من إقامته في الخارج. وقد وجدت دعايات كورش أرضا خصبة بين المواطنين البابليين وغيروا ولاءهم إلى الملك الفارسي ذي العقلية المتحررة ودخل المدينة التي لم يسمح بنهبها أو سلبها أو أن يفسد مؤسساتها الدينية أو إدارتها المدنية وعين ممثلا فارسيا حاكما عليها. وقدم قمبيز ابن كورش الأصغر الخضوع للآلهة في عيد رأس السنة الجديدة في بابل حيث استلمت السلالة المنصب من الإله مردوخ وبذلك مارست الملكية على بلاد بابل ليس بحق الفتح فحسب بل بدعوة مقدسة أيضا.

وبذا انتهت آخر سلالة وطنية في بلاد بابل وآشور فقد استمر الحكم الأخميني [الفارسي] حتى عام ٣٣١ق م حيث وقعت بعد ذلك بلاد ما بين النهرين فيما تبقى من الألف الأول قبل الميلاد في أيدي السلوقيين]الإغريق] والإرشاقيين [الفرثيين] وكانت أجزاء كثير من بلاد ما بين النهرين قد وقعت تحت الحكم الأجنبي المؤقت من قبل غير أن الفتح الأخميني جاء في وقت كانت هناك قوى جديدة يرتفع شأنها في الشرق الأدنى القديم وكانت حضارة الألفين سنة القديمة في بلاد بابل تموت بغض النظر عن الاعتبارات السياسية. وقد سبقت الإشارة للشعور الذي كان يزداد حول عدم ملائمة مجمع الآلهة البابلي ومحاولة نبونئيد الإصلاحية، وهناك أدلة كثيرة من فترة العهد الآشوري الحديث لما يسميه فون زودن "الميل إلى النزعة الدنيوية". إضافة إلى ذلك، فابتداء من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد كان تأثير الأراميين يتغلغل في بلاد بابل أكثر وأكثر سواء فيما يخص

النظام الاجتماعي أو اللغة. وفي الأول بالتأكيد على النظام القبلي والميل إلى إضعاف أسس نظام دويلات المدن القديم، وفي الثاني، فقد كان من مزايا اللغة الآرامية أنها كانت اللغة الأم لمجموعة من الأجناس البشرية أكثر انتشارا من مجموعة المتكلمين باللغة الأكدية. أما بالنسبة للكتابة فقد كانت الأبجدية الأرامية بحروفها الاثنين والعشرين أسهل بكثير كوسيلة للاتصال من المسمارية الأكدية بعلاماتها الستمائة... وكانت الكتابة الآرامية تستخدم أحيانا حتى عندما كانت الأكدية المسمارية لا تزال تستخدم على الرقم الطينية كوسيلة اعتيادية لكتابة الوثائق القانونية نظرا لسهولتها وذلك لتعليم مثل تلك الرقم لأغراض حفظها. وكان بمقدور المتعلمين فقط وبعد دراسة سنوات طويلة من أن يسيطروا على المسمارية الأكدية. وظلت الكتابة مستخدمة بين هؤلاء المتعلمين للأغراض العملية المحدودة لبعضة قرون أخرى. وفي عام ١٤٠ ق م اختفت نهائيا باستثناء استخدامها من قبل بعض الكهنة للأغراض الدينية لمدة نصف قرن آخر، وبين الفلكيين. وبالنسبة للفلكيين فقد ظلت المسمارية مستخدمة حتى وقت المسيح.